غَمْسِيس

رواية مشتركة

عواطف محجوب

حكمت الحاج



KINAYA
BOOKS

غَمْسِيس

رواية مشتركة

حكمت الحاج

عواطف محجوب

كتاب كناية

غمْسِيْس، رواية مشتركة، تأليف: حكمت الحاج و عواطف محجوب

كتاب كناية ™©
A series of books overseen by Hikmet Elhadj

www.metonymykinaya.com
metonymykinaya@gmail.com

كتاب كناية
سلسلة كتب ومطبوعات ورقية ورقمية تصدر عن مؤسسة ميتونومي كناية تحت إشراف حكمت الحاج
مشروع ثقافي غير ربحي يهدف الى إيصال الكتاب العربي إلى العالم
صفحة كناية على فيسبووك:
www.facebook.com/kinayametonymy

من منشوراتنا القادمة:
في الشعر السويدي النسوي المعاصر، حكمت الحاج، مقدمة ومختارات
الكتابة بسيف الثائر علي بن الفضل طبعة ثانية مرخصة شعر د. عبد العزيز المقالح
للصورة لون آخر، ديوان شعر، معد الجبوري، طبعة جديدة مرخصة
سلمان رشدي والواقعية السحرية الجديدة، محاولة نقدية، حكمت الحاج
عقائد موجعة شعر أحمد عبد الحسين بالإنكليزية بعنوان Painful Creeds ترجمة خالدة حامد

لوحة الغلاف: إهداء من الرسامة التونسية عايدة عمار
طبعة كتاب الجيب
ISBN 9781447712589

غمسيس

إهداء أول:

إليها.. العقيلة، زينب، وردة الرمال السوداء.

إهداء ثان:

الذين تلاشت خطاهم فجأة، إليكم إشارة طريق.

الحياة جسر، لا تبن بيتك عليه.

بوذا

ما أكثر القيود التي تربط الإنسان بالدنيا، ولكن أعجبها جميعا هو قيد الأمل.

طاغور

كلمة لا ضرورة لها

هذا "شيء" كتبناه معا..
أسميناه "شيئا" لأننا لا ندري ما هو بالضبط
أخيرا،
قيل لنا إنها رواية
ورواية مشتركة بالتحديد
وقيل لنا إننا إنما نتبع خطى الكبيرين: جبرا
إبراهيم جبرا وعبد الرحمان منيف في روايتهما
المشتركة "عالم بلا خرائط"
لكن، ومن يهتم؟
فلربما حقا قمنا كما المعلمين الكبيرين، بخلق
مدينة لكلينا
عمورية لجبرا ومنيف
غمسيس، مدينة لنا
هما جمعا بغداد بدمشق بمدن الملح والرمال
نحن كتبنا تاريخ الرمل والبحر والريح في
المسافة ما بين تونس والوجدان
البحر من أمامنا
وتونس من ورائنا
والحب ما بيننا
لكننا لا ندعي شيئا
لا نبشر بشيء
لا نشير إلى شيء

حاولنا تبادل العذابات
وتوثيق احتضارات الروح
فعصتنا وطاوعتنا أحيانا، الكلمات
وكنا في كل تلكم وتلك وهاته
لا نقول إلا الحقيقة
لكننا ربما
لم نقل كل الحقيقة.

حكمت الحاج وعواطف محجوب
تونس ستوكهولم / حزيران 2023

كل الأسماء والأماكن
والأحداث الواردة في الرواية
هي من نسج الخيال، وأيُّ
تشابهٍ بينها وبين الواقع إنما
هو مَحضُ مصادفات.

الأول

نور

لقد عدت من المدينة حوالي الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم من شهر مارس وأنا مشمئز جداً من الحياة، بسبب إنني كنت قد أمضيت تسعة أشهر متواصلة في العاصمة، دون العودة في إجازة إلى الجنوب، مما جعلني أكره نفسي وألعن الحياة، وها أنا ذا قد أعلنت أني سئمت من ذلك. ولو كان قد أخبرني أحدهم قبل عام مثلا أنني كنت سأشعر بذلك عندما أذهب إلى العاصمة، وأقيم فيها على حساب ربّ عملي في أفخم فندق في تونس وربما في الشمال الإفريقي برمته، لكنتُ قد ضحكتُ عليه بطبيعة الحال. فمن يجرؤ على السأم وهو في تونس العاصمة، تلك المدينة الكولونيالية الكوزموبوليتانية المتوسطية المرتمية على مقربة من البحر كفتاة تتعرى تحت الشمس وتغطي مفاتنها بشيء من الرمال؟ ولكن، الحقيقة هي هذه الآن، وهي إنني قادم من هناك وقد أقسمت على عدم الرجوع إليها مهما كانت المغريات والمنشطات والمخدرات والملهمات والنائحات الصادحات الضاحكات الباكيات على طول مقاهي وبارات شارع الحبيب بورقيبة، شارع العصافير التي تقوم برقصتها كل مساء وهي تؤوب الى أعشاشها المنتشرة على الأشجار المزروعة باعتناء على ضفتي الشارع الشهير، بل

الأشهر، منذ أن أطلق عليه الفرنسيون المحتلون اسم الشانزليزيه، تيمنا بشارع عاصمتهم هناك وراء البحار، يناغون فيه مجدا قد غرب وذبل وزال، واستشرافا ربما لما سيحدث بعد عقود في هذا الشارع بالذات من هول وزلزال.

دخلت الدار فواجهتني تلك الحقيقة: أنا أعيش لوحدي. إنه شيء حقير، بل أحقر من هذا الطقس الجنوبي اللزج المغبر الساخن رغم أننا من المفروض أن نكون في فصل الربيع. لقد جعلني الطقس كئيباً، وجعلتني نظرة إلى الثلاجة والمطبخ جائعا مثل كلب أدرد. وللحظة فكرت، فجاءني الحلّ في صورة واحدة تتكرر دوما في خيالي، لكني أخدع نفسي كل مرة بادعاء أنه حل مفاجئ ومباغت وجديد.. "نور" !

وهكذا بدت مقاهي ومطاعم القرية المنفوخة التي أعيش فيها على بحر ملطخ بدماء أسماك الصيادين الفقراء وببقايا أكياس الشباب الحارقين إلى أقرب جزيرة إيطالية لتحرير الحلم وتحلية اللقمة، وقد ضاعت أرواحهم في هذه اللعبة المتكررة دون فوز، وغالبا ما يطلقون عليها اسم الهجرة غير الشرعية، بينما اسمها الحقيقي هو امتطاء قوارب الموت. مدينتي الساحلية الصغيرة هذه لا تكلّ ولا تملّ من دفن جثث الأبناء ودفع المزيد منهم نحو البحر الغدار الخائن، عدو الصديق وصديق الفقدان.

اشتريت قارورة كوكاكولا من فئة الليترين وأخفيتها في كيس بلاستيكي أسود، وطرقت الباب ففتحت لي، وعندما فحصتني بنظرة سريعة ماسحة، وتوقفت عيناها على الكيس، لم تعطي

أي انطباع في وجهها، ولا تفوهتْ بكلمة، بل تركت الباب مفتوحا ومشت خطوات نحو اليمين، ومن المطبخ سمعتها تقول وهي تضرب بعض الأواني ببعضها، أو هكذا خيل إلي:

- سَكّرْ الباب وادخلْ.

الثاني

المدينة والبحر

"غمسيس" مدينة مسطحة، مثل مياه البحر المجاور التافه الذي هو عار على البحار كلها، حتى وإن كانت واقفة تحت الشمس. "نور.."، ظللت أقول لنفسي، "لقد دخلت في الخندق الخطأ، يا صديقتي، وكان من الأفضل لي أن أتسلق."لقد جعلتني أعضّ شفتيّ لأفكر في الخطط التي كنت أقوم ببنائها في تلك السنوات الماضية في العاصمة. لقد حصلتُ على كومة لحم ريفي. لم تكن جميلة بشكل كبير، لكنها كانت جيدة بما يكفي بالنسبة لي، وقد علمتني جميع أنواع طرق الاستمتاع بالنساء بما يكفي لأربع زيجات. لم تكن تشبه نور في أي وجه من الوجوه سوى أن جسدها كان أكثر اشتعالا وبذخا وعلانية. نور تجعلني أهدأ وأستقر في أفكاري، أما محاسن فكانت تأخذني كل مرة إلى حافة الجنون. كان والدي قد طردني من البيت بسببها عندما كنا في القرية، ولم أعد إلى المنزل منذ ذلك الحين، لذلك كانت غمسيس بالنسبة إلي نوعاً من تحقيق ألف ليلة وليلة على أرض الواقع، وكنت أعول على التوقف هناك لبقية أيامي. لكن منذ البداية شعرت بخيبة أمل من ذلك. في غضون أسبوع تقريبًا، سئمت من رؤية المعالم السياحية، وفي أقل من شهر كان لدي ما يكفي من المطاعم والمقاهي والحانات الرخيصة وبيوت البغاء.

لم يكن لدي صديق حقيقي أتعامل معه، وهو ما يفسر على الأرجح الأشياء التي حصلت. دعاني الكثير من الناس إلى صداقة وصحبة لكني ما كنت آمن لأحدهم، فقد تربوا جميعا في الميناء، والميناء لا قلب له ولا أصدقاء سوى المال والسكاكين والبغايا وعملاء البوليس الذين كانوا بين فينة وأخرى يطرحون علي سؤالًا أو اثنين عن بعض المهربين ومنظمي رحلات الهجرة غير الشرعية، ثم يتطرقون إلى شؤونهم الخاصة وعلى رأسها اقتناء قارورتي بيرة على حسابي. ونظرا لإني كنت أهتم بهندامي وتصفيفة شعري ووضع عطور قوية الرائحة، طلبت مني الكثير من القوادات أن أتناول الشاي في بيوتهن كحجة لمقابلة نساء شابات دخلن المهنة لأول مرة، وكانت نظافتهن المزعومة هذه تعني دفع المال الوفير لقاء ذلك مما لم أكن أملكه، وكان ذلك هو الشعور الأكثر كآبة لي على الإطلاق.

لقد كنت هنا، على مشارف الأربعين من عمري، أعيش في هذه المدينة البحرية الصغيرة المنبوذة المسكونة بالريح طوال الوقت، وليس لدي ما يكفي من المال لقضاء وقت ممتع باستمرار. كنت قد استقريت على العمل في الميناء كمترجم للغة الإيطالية التي درستها في الجامعة، والفرنسية التي تعلمتها في المدارس، والإنكليزية التي تعلمتها من التلفزيون. أحيانا كنت أرافق بعض التجار الى المعابر الحدودية التي تبعد حوالي الساعتين والنصف عن غمسيس، وأعود من هناك بمؤونة تكفيني لشهرين أو أزيد، مع بعض الإكراميات المجزية في حال توصل أولئك التجار إلى عقد صفقات استيراد وتصدير مربحة، عبر تجارة شرعية، أو

عبر طرق تهريب للسلع والبضائع عبر الحدود بين غمسيس وبلدان الجوار.

بعد ظهر ذلك اليوم ، كنت أترجم لبعض الوسطاء التجاريين في الميناء ممن أتعامل معهم كلما رست سفينة محملة بالبضائع المستوردة لحساب استثمارات أجنبية تعمل في البلاد بموافقة الحكومة، حينما تذكرت شيئاً ما كان علي أن أنساه. وفي طريقي إلى المنزل تحولت إلى المقهى الخاص بي، وهناك تسلمت مظروفا كبيرا كان أودعه أحدهم لي عند سي صلاح ،صاحب المقهى، الذي كنت حولت مقهاه إلى صندوق بريد شخصي دون أي انزعاج منه أو اعتراض. قررت الجلوس إلى طاولة في المقهى ليست طاولتي المعتادة وتناولت المظروف وفضضته بأصابعي المتسرعة بعد أن طلبت كأسا من الشاي الأخضر.

وأنا جالس في الكافيه، أمامي شابة بشعر مجعد طويل وقامة فارعة ورشاقة مذهلة وسروال ضيق. نظرت يمنة ويسرة وحدجتني بنظرة آمرة، ثم بدأت تفتح أزرار قميصها سماوي اللون، ومدت يدها وحضنت ثديها الأيسر بكفها الأيمن وحررته خارج القميص، ثم ألقمته فم رضيعها (ولست أدري لم تخيلته صبيا). وبمجرد أن استقرت الحلمة الوردية الداكنة داخل فمه، سكن الأزعر عن الحركة ورقصة الساقين والصراخ البريء. المنظر جميل، ليس بسبب الأمومة وما إلى ذلك من الخزعبلات، بل بسبب أن ثديها صغير جميل مبهر كريم معطاء، وهي ما تزال تنظر إليّ وتبتسم، وتلقي بنظرة حنو نحو طفلها الذي سأظل أحسده حتى قدوم يوم القيامة. تَبّاً.

الثالث

الورقة المطوية بعناية

كانت الإرسالية تتضمن ككل مرة، كيس نايلون طويلاً، ومطويات ورقية كثيرة وحزمة صحف ومجلات، وبعض الصور بأحجام مختلفة. نظر إلى ظهر المغلف الضخم فوجد اسم المقهى واسم صاحب المقهى واسمه هو وقد كتب تحته. ولكنه لاحظ أيضا أن نوع وحجم الخط اليدوي الذي كتب به العنوان لا يشبه كثيرا نوع وحجم الخط الذي كتب به في المرات السابقة. كانت الصحف المرسلة قد صدرت جميعها في المساء، ورأى في ذلك صدفة عجيبة. وقرأ إن البشر كانوا مليئين بالخلاف في الشرق الأدنى، وكان هناك مقال عن رئيس الوزراء الحالي، وإن البرلمان الموقر ربما سيسحب منه الثقة. وبدأ يتخيل في الأحداث القادمة أو بالأحرى القاتمة، كما كان يتخيلها كاتب المقال. ولشدة استغراقه في القراءة لم ينتبه إلى الرجل الذي كان الآن يجلس إلى جانبه على نفس الطاولة، ويصدر أصواتا غريبة عند شفطه للشاي الساخن، وهو ما كان أكثر مما يمكن تحمله بالنسبة للوضع الذي هو فيه، وللرسالة الصغيرة المدسوسة اليه كالعادة بين تلافيف وصخب محتويات الظرف البريدي الهائل الحجم المرسل اليه من العاصمة على جناح السرعة. كان

عليه أن يجدها بين زحام المرسلات وأن يقرأها بحرص وعناية، لوحده، وأن يتلفها بعد ذلك بأي شكل من الأشكال. ارتعب من فكرة أن يتلصص عليه هذا الجالس إلى جانبه، إذ ربما سيكون مخبرا أو عميلا لرجال الشرطة الذين يراقبونه طيلة الوقت حتى وهو يطرق أبواب بيوت البغايا وعاهرات الغجر وفتيات الميناء. لقد أدرك أنهم يكرهونه بشدة في "غمسيس" الحقيرة هذه، أكثر بكثير مما كانوا يضمرون له الكره في أنحاء العاصمة، أو في قريته الصغيرة مسقط رأسه. وقالت إحدى الصحف إنه كان الحاجز الوحيد بين الانتماء للاتحاد الأوروبي وبين الارتماء في أحضان جامعة الدول العربية. أتذكر أنني كنت أتساءل دوما عما إذا كان بإمكاني الحصول على وظيفة في تلك الأصقاع الحارة البعيدة. فلوسهم كثيرة ولكن من المدهش أن تكون الصحراء البدوية هي المكان الذي قد يمنع الإنسان فيه من التثاؤب وتنظيف الأنف بالسبابة. رئيس الوزراء المسكين هو الحاجز. الويل له إذن! اذبحوه دون هوادة.

في حوالي الساعة الخامسة مساءا، عاد إلى المنزل، وارتدى ملابس نظيفة، وتناول علبة بيرة مثلجة بسرعة وعلى معدة فارغة لكي يظهر تأثير الكحول عليه بشكل أكبر، وحمل معه حزمة الصحف المسائية، وتوجه صوب بيت نور. هل سيمكث عندها حتى موعد العشاء؟ وماذا سيكون يا ترى؟ أكيد أكلة يحبها. لكنه اعترف أمام نفسه إنه يحب كل أنواع طبخاتها. هل سيخبرها بالذي وجده في الرسالة المدسوسة في المظروف؟ هل سيفعل ذلك قبل العشاء أم بعده؟

في الطريق الى بيت نور، انتبه إلى أحد الدكاكين الماثلة على حافة الشارع الرئيسي وقد تحول بقدرة قادر إلى قاعة للموسيقى. كانوا الآن يعلقون إعلانا قماشيا على شكل يافطة مستطيلة ذكرته بأيام المظاهرات في الشوارع، وملاحقات رجال الأمن لهم بالهراوات وقنابل الغاز المسيل للدموع. لقد كان عرضا سخيفا أن تسجل أولادك بهذا المبلغ المعلن لقاء تعليمهم الرقص والغناء لمناسبات أعياد الميلاد والطهورات وسهرات الأعراس الفقيرة المقيتة التي تؤمها كل النساء من فئة التماسيح والرجال من فئة القرود. لم يبق طويلاً أمام منظر اليافطة ومعهد الموسيقى برائحته الموروثة من الحانوت القذر.

طرق الباب، وفتحت له كالعادة، ومشت أمامه، وتبعها إلى الداخل، وقبل أن يسمع عبارة "سكر الباب وراك" كان قد أغلقه بالفعل. وقال يهمس لها وهما في المطبخ "لقد كبرت مؤخرتك. لقد لاحظتها وأنا أدخل ورائك. هل صرت تأكلين الكثير من العجائن؟". قالت له بنفس الهمس "لقد غيرت نوع البيجاما. هذا كل ما في الأمر. ربما أنت تحتاج إلى فحص للبصر، أو أن تجد حلا لك مع إحدى قحباتك في الميناء". التفت إلى الوراء متوجسا وقال "أرجوك اخفضي صوتك. ربما تسمعنا أمك". ضحكت وهي تسخن الطعام وتضع الخبز على الطاولة "أمي تعرف ماذا نقول وماذا نفعل دون أن تسمع أو ترى، فهي تعرف كم أنت نذل وحقير". ابتسم كأنما جاءته قصيدة مدح من شاعر عباسي، وجلس إلى طاولة الطعام وهو ينظر بشراهة إلى الصحن الذي أمامه وهي تملأه له بالرز البسمتي الأبيض

المخلوط بقطع لحم الخروف التي يحبها، وأغرقت الرز بصلصة الملوخية السوداء بالرائحة النفاذة، فما كان منه إلا أن صرخ بفرح وانتصار "فعلا أكلة ملوكية يا نور عيني. ستدخلين الجنة بشفاعة الحاكم بأمر الله، خليفتنا الفاطمي". وصارت تتوسل اليه وتتضرع أن لا يبدأ بسرد حكاية أصل الملوخية وإنها سميت كذلك لأنها الأكلة المفضلة التي كانت تطبخ للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بعد أن ورثها من جده عبيد الله المهدي المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية بتونس. فقد كررها أمامها عشرات المرات دون كلل أو ملل.

لم ينتظر إكمال عشائه، بل دفع إليها تلك الورقة المطوية بعناية إلى أربع طيات متناظرة. تناولتها من أمامها على الطاولة، أين دفعها بيده اليها، بينما كان هو منغمسا في الملوخية وفمه مشغول بالرز واللحم، ويده اليسرى تمسك بخبزة الطابونة المسخنة من جديد. ولم تفتحها على الفور بل ظلت تنظر اليه وهو يأكل مثل أي حيوان متضور جوعا، وادعت إنها قد أكلت قبله عندما سألها أن تشاركه العشاء، وكان يعلم إنها تفعل ذلك لكي لا تزاحمه على كمية الطعام التي سيزدردها كلها لوحده.

الرابع

رجل يموت في ظروف غامضة

كانت الليلة مقمرة وواضحة بينما كنت أعود إلى منزلي الذي كنت استأجرته بالقرب من آخر دورة قبل الطريق المبلط بعناية والمفضي الى الميناء. في العادة يكون الطريق موحشا في الليل حيث تقل حركة السيارات وتنعدم تقريبا حركة المارة. وإذا ما كنت عند نور ورُمتُ العودة مباشرة إلى بيتي فمن المستحسن الاستعانة بسيارة أجرة للغرض. أما إذا كنتُ راجعا من وسط البلدة أو من عمل متأخر في الميناء فإنني غالبا ما كنت أسير المسافة على الأقدام. كانت نور تحذرني دائما من مغبة التمشي في الليل في غمسيس المخطرة دائما، خاصة بعد السنة الأخيرة حيث كثر الغرباء بسبب فتح استقبال السفن المحملة بالمسافرين في الميناء، ونصب مخيمين كبيرين على أطراف المدينة لإيواء اللاجئين الهاربين من بلدان مجاورة.

اندفع الحشد من أمامي على الأرصفة، مشغولًا ومثرثرا، وكنت أحسد الناس على ما يفعلونه. كان لدى بياعات المتاجر والموظفات من الشريحة الدنيا وخادمات المنازل والشباب العاطل عن العمل وأعوان البلدية ورجال الشرطة بعض الاهتمام بالحياة الذي جعلهم يستمرون فيها. عندما مررت

بالجامع المضاء من كل جوانبه دوما، رأيت متسولا جالسا أمام الباب ويتثاءب. أعطيته دينارا معدنيا لأنني رأيته يتثاءب. كان يعاني من الجلوس المطول وتمثيل دور أعمى أو مقعد بلا طائل طالما أن متسولات فتيات جميلات مثيرات قد غزين الشوارع ولا أحد يدري من أين يأتين. قالوا ربما من معسكر اللاجئين الثاني. في خطواتي اللاحقة نظرت إلى السماء المتسخة ببعض الغيوم التي لا ضرورة لها. سأمنح هذه البلدة المتفسخة تأشيرة عبور إلى جهنم وبئس المصير إذا لم يحدث لي شيء ينقلني من هذا الإحساس إلى نقيضه. كنت سأركب القارب التالي إلى لامبيدوزا مثل كل مرة ثم يخونني الحنين بعد أن أكون قد دفعت للمهربين كل ما أملك وكل ما استدنت.

كانت شقتي في الطابق الأول في مبنى جديد خلف رومبوان المروج. كان هناك سلم غير مضاء طوال الوقت إذ تتم سرقة المصابيح من السكان انفسهم، مشترك، به عند المدخل، لكن لم يكن هناك مطعم أو أي شيء من هذا القبيل في الجوار سوى عصائر وحلويات الزرميطي على الضفة الأخرى للشارع، وكانت كل شقة مغلقة تمامًا عن الآخرين ولا اختلاط بين سكان العمارة بسبب أن جميع المتساكنين هم أغراب وليسوا من أهالي غمسيس. أنا أكره خادمات البيوت فلا يأتي من ورائهن إلا المشاكل وأغلبهن يتعاملن مع الشرطة بشكل ما، لذلك كانت لدي معرفة أو صديقة أو زميلة أو قريبة أو لنسمها عشيقة، أثق فيها تماما، تعتني بي وبشؤوني المنزلية وتأتي بين يوم ويوم. كان تصل قبل الساعة التاسعة صباحا كل يوم، وتغادر بعد الساعة الخامسة

مساءا، وتترك لي طعامي على طاولة المطبخ مغطى بعناية، لكني كنت أتخلص منه كل مرة بطريقة، لأنني لم أكن أتناول العشاء في المنزل أبدا.

كيفَ عرفتُ رُقيَّة؟

كنت أقوم بوضع مفتاحي في قفل الباب عندما لاحظت وجود فتاة في زاوية منعطف السلم. لم أرها تقترب، لكن ظهورها المفاجئ في ظلام المرتقى جعلني حذرا. عندما فتحت الباب وأنرتُ مصباح مدخل الشقة رأيتها على ضوء النور الساقط من الشقة على السلم. كانت فتاة نحيلة جدا ولها شعر طويل منسكب على كتفها الأيمن. ربما رأيتها قصيرة نوعا ما، وعيناها صغيرتان عسليتان.

كانت تنظر إلي وتحضن حقيبتها بقوة بين يديها مغطية بها صدرها.

- هل ستقضين الوقت على الدرج تحدقين في هكذا؟ تعالي ادخلي. لا تخافي لن آكلك فقد تعشيت في الخارج.
- هل يمكن لي أن أتحدث معك بضعة كلمات أستاذ، ولن أطيل عليك، أستاذ.
- حسنا. ادخلي قبل أن يمد كل الجيران في الطوابق الخمسة رؤوسهم العفنة ليروا حضرتك تنادينني أستاذ.
- هل يمكنني البقاء لدقيقة واحدة فقط أستاذ؟
- أنت تثرثرين كثيرا. ادخلي وإلا طردتك إلى الشارع الآن.

كانت شقتي مكونة من صالة وغرفة نوم ومطبخ وحمام. ولم تكد رقية تتجاوز العتبة، حتى اندفعت مسرعة إلى غرفتي، ثم خرجت منها بنفس السرعة إلى المطبخ، ثم دخلت الحمام وخرجت منه، ووقفت في منتصف الصالة، والخوف باد عليها.

- هل الباب مغلق بالمفتاح؟

سألت بحرارة وهي تتنقل بعينيها في أرجاء المكان.

ذهبت فأوصدت باب الشقة بالمفتاح من الداخل.

قالت بتواضع: أنا آسفة جدا أستاذ.

- لا ولا يهمك. اجلسي. استريحي. هل آتيك بكأس ماء؟

- لا أستاذ شكرا. لست عطشانة.

- أرجوك أن تهدئي قليلا. هل أفتح لك التلفزيون؟

- لا شكرا. لا أريد.

تركتها تهدأ وانسحبت إلى المطبخ، بينما جلست هي على الكنبة ذات المقعدين، ووراءها الشباك المغلق دوما والمطل على الحديقة الخلفية للعمارة.

قررت أن أعد فنجانين من القهوة المطحونة التي وصلتني هدية مؤخرا من أحد تجار الميناء عندما علم بالصدفة إني أفضل البنّ والجزوة على قهوة النسكافيه الجاهزة.

سمعت صوتها دون أن أتميز ما تقول، فعرفت إنها تتكلم في هاتفها النقال. انتظرت حتى وصل الماء في الجزوة إلى درجة الغليان فأضفت أربعة ملاعق من "بُنّ العميد" الأردني المخلوط

بالهال والنفاذ في رائحته المشرقية، وأخذت أقلب المزيج. صحت من مكاني:

- كم سكر؟ أنا أعد القهوة. قهوة عربي.

لم تجبني، لكني سمعت صوت خطواتها وهي تقترب وتدلف من باب المطبخ. أرادت أن تقدم خدماتها وتكمل هي تحضير القهوة لكني رفضت، وعندما سألتها ثانية عن كمية السكر التي تفضلها قالت مثلك، سأشربها مثلما تشربها أنت أستاذ. فأدركت ذكاءها وانها قد أتت لأمر جلل ولا شك. لكن يا ترى ما هو؟ وانتابني شيء من القلق سرعان ما قررت تبديده وأنا أرافقها إلى الصالة حاملا في صينية صغيرة فنجانَيْ القوة الساخنة الفواحة.

الخامس

محاسن

إنها تبدو جميلة جدا عندما تتكلم، تلك اللعينة، لكنني نظرت مليا إلى نوع أنفها الطويل المستقيم الذي عشقته على الفور ودون أية مقدمات. لست أدري أين قد رأيتها أو لمحتها، هذه القذارة. أنا متأكد، لكن أين يا ترى؟ كنت أفكر في حياتي طوال هذا الأسبوع عندما أصبحت الأمور مزعجة، والمياه تجري من تحت قدمي وأنا ساه عنها. صداع، صداع وفراغ في الرأس ومطرقة حديدية ضخمة تضرب باستمرار على جدران جمجمتي. ها هي نور تقف باستمرار فوق الجبل منتظرة، دونما أدنى ابتسامة، بجلَد وصبر يليق بشموخها الأبدي، قدوم المعجزة السماوية. وتلك هي محاسن، ذات الجمال الطاغي، والعينين الساحقتين، تبحث عني لأجل أن تنتقم انتقاما، لكي يكون قويا، يجب أن يكون شاملا، كما هددت ووعدت وأوعدت. هل أهرب من جديد؟ هل ارتكب حماقات أخرى إضافية فوق ما ارتكبت من حماقات طوال حياتي الخرائية؟ هل أنهي حياتي؟ هل أنتحر؟ وبأية طريقة؟ البحر؟ الغرق؟ الغاز؟ قطع الشريان؟ أربعين حبة منوم مع بعضها دفعة واحدة؟ أم بحرق نفسي في الساحة العامة؟ لكني أفكر فيها، واستحضر صورتها، زادي

الوحيد وزوادتي في صحراء الحياة. أتأرجح ما بين اليأس والأمل لكني أرميهما جانبا فلا فائدة في هذا النوع من التفكير بعد أن قابلت امرأةَ ربع الساعة الأخيرة، امرأة الوباء، امرأة الموت الوئيد، حيث تغيرت المعادلات والخوارزميات والبديهيات، واضطربت حركة دقات الساعة الزمانية. أحدق فيها وتفلت دمعة حنين، وتطفح غصة، وأنصح نفسي بالصبر وبمزيد الحلم. لقد أفلتت جميع الخيوط من يدي، وأرى أتروبوس تقص خيط النجاة بمقص الرغبات فأغرق في اللجة المحتدمة. لا يهم. حتى وإن ضعت في الغابة المتشابكة، فعيناك هما دليلي وستقودانني من الشك إلى نور اليقين. سآتيك راكضا ركضة الأعمار، كما يركض العراقيون في أربعينية الإمام الحسين كل عام. سأقطع كل شيء، سأترك كل شيء، سأهجر كل شيء، ولكن هذه الصبية النحيفة قد تؤجل لي كل ذلك، فلأنصت اليها، لأسمعها، فلعلها أن تسرد علي ما يلهب خيالي أو ما يزيح عن كاهلي الخوف والتردد والشرود.

ووجدت نفسي أغلظ لها بالقول مخاطبا إياها بصوت جاف استغربته لوهلة أولى:

- احكي بسرعة وباختصار ولا تدوخيني بقصص سخيفة. احكي بلا مقدمات. هيا إذن. لكن إذا كذبت علي فإني، وعيونك الحلوة هذي، سآخذك وأرميك في الشارع حيث ستصبحين لقمة سائغة للصوص الليل حيث لن يبقوا منك إلا كومة من العظام العارية. هيا!

رأيت خوفا في عينيها لم يمكث طويلا عندما قالت:

- قل لي أستاذ ، هل ستنصت لي جيدا إذا ما حكيت؟

قلت:

- سأستمع إليك بكل عمق. هذا كل ما أعِدُ به. تكلمي وخلصيني. بدأت أفقد صبري معك!

كنت أشعر بالقلق من تصرفاتها ونبرة صوتها. كانت ترتشف قهوتها ثم تشرب جرعة ماء من القارورة البلاستيكية الصغيرة الموضوعة على الطاولة أمامها، ثم تعود إلى رشفة أخرى من فنجان القهوة، وهكذا.

قلت بنفاد صبر:

-أسمعك!

ويبدو إنها قررت أن تحكي أخيرا، إذ تحركت بجسمها قليلا الى الأمام وتنحنحت قائلة:

- عفواً أستاذ، أنا أعرف إني أزعجتك قليلاً الليلة. لكن كما ترى، فأنا ميتة لا محالة. أنا انتهيت أستاذ، انتهيت!

هذه المرة رجعت أنا بجسمي إلى الوراء، ووضعت يدي على ذراعَي الكرسي وأشعلت سيكارة. كنت متأكدا تماما من أنني يجب أن أتعامل برفق مع فتاة مجنونة ضائعة في ليل غمسيس المرعب.

السادس

رقية

تلألأت ابتسامة على وجهها المرسوم بدقة. أنا الآن لم أعد غاضبًا أو منزعجا. قولي، انطقي، تكلمي، لقد كنت أشاهدك في خيالي في هذه اللحظة، وأعتقد أنني بدأت أنظر وأتذكر. أعرف أين رأيتك. عميل رائع. أعتقد أيضًا أنك رجل أمين، ولا تخشى اللعب مع يد جريئة. سأثق فيك. أحتاج إلى مساعدة أكثر من أي رجل احتاجها على الإطلاق، وأريد أن أعرف ما إذا كان بإمكاني الاعتماد عليك. الميناء موحش وثمة أضواء تلمع من بعيد، وصوت الرجل يثقب أذني لأنه يكذب ببساطة. قلت لها أسمعك، قالت استمر في هدوئك معي، وسأخبرك بكل شيء. أنا أخاف الرجال، ولا أريد أن أخاف منك أنت بالذات. بدت وكأنها تجهز نفسها لجهد كبير، ثم بدأت تتكلم بأسلوب صعب المراس. قلت لها تذكرت أين رأيتك. عند أنيس. لم تصعق كما كنت أتوقع ولم تندهش. لم أحصل عليه في البداية، واضطررت للتوقف وطرح الأسئلة بكل غباء. ولكن هذا هو جوهر الأمر: لقد كان رجل شرطة متخف في ثياب مثقف بورجوازي، من ولاية "اللام"، وبعد الجامعة، ولكونه ميسور الحال، سافر لرؤية العالم. أما أنا فقد كتبت قليلاً، وعملت كمراسل سري لصحيفة "السديل"

المعارضة، وأمضيت عاما أو اثنين في الشمال الغربي الفقير، تحت رقابة الأمن. وهناك أدركت أنني كاتب جيد، وكان علي أن أتعرف جيدا على مجتمعي وبيئتي وناسي، في تلك الأنحاء. وهناك، بدأت بالتقرب من الناس. تحدثت بشكل مألوف عن العديد من القضايا التي كانت تذكر وقتها في الصحف اليومية. أخبرتني أنها أيضا تتذكرني. كانت تزور أنيس أحيانا في صالون الحلاقة، وأحيانا في بيته، أين كنت معه معظم الوقت كخطيبة في العلن وكصاحبة في السر. كان أنيس يتلاعب بي كما يتلاعب السياسيون في البرلمان وأمام عدسات التلفزيون. في البداية، حدثني عن مصلحتي ومستقبلي وإنه سيتزوجني في نهاية المطاف، ثم تبين لي في وقت جد قصير إنه لم يستطع حتى مساعدة نفسه. لكني قبلت به وبوضعي معه، وتعودت على طبعه الحاد الذي لا يهدأ، ويريد دائما الوصول إلى جذور الأشياء. كنت أحبه، وكان يرضيني في الفراش فأخرج منه مشبعة مستمتعة مكتفية، ويصرف علي، وأنام عنده في بيته الصغير معظم الوقت.

ذهبت عند نور مسرعَ الخطى قلقاً. نور، نور. وهل هناك غيرها من يجب أن يسمعني إذا ما صرخت؟

لقد فعلتها، وحكيت لها كل شيء. لكنها كانت ترمقني بين فينة وأخرى بنظرات أعرفها. نظرات تقول لي هات ما عندك كله ولا تخفي عني شيئا لأني سأعرفه مهما طال الزمن.

وفعلا، مهما طال زمني، ومهما أكون قد وثقت بها وحكيت لها كل أسراري وخباياي وخطاياي، إلا إنني لم أجرؤ أبدا أن أذكر أمامها الفيلم الوثائقي القصير الذي كانت رقية بطلته بلا منازع في ليالي العرض المتتالية، ولم أدخر أنا جهدا في منازعتها دور البطولة في الفلم. مما يشكل مادة الحديث كاملة في الفصل الموالي من هذه الرواية.

السابع

الليالي كلها

هكذا تمّ الأمر. فقد قبلتْ بشروطي، وقبلتُ طلباتها. ستبقى مختفية عندي لعدة أيام ريثما يخفّ انتشار الشرطة حول بيت أنيس الحلاق الذي وجدوا جثته معلقة في إحدى أشجار الزيتون بمزرعة خارج حدود غمسيس. لقد كانت تقيم بداره بشكل شبه دائم تحت ذريعة أنها معينة تنظيف ومدبرة منزل، وقد تركت وراءها هناك كل ما يمكن أن يثير الشبهات حولها كجانية، وفي أحسن الأحوال كشاهدة. وفي الحالتين فإن دخولها مركزا للشرطة في هذه الأيام أمر لا يمكن تقدير مدى خطورته لفتاة وحيدة مثلها، وكمّ الأخطاء الكبيرة التي ستنجم عن ذلك. ورغم إني أمرتها أن لا تعمل لي عشاءا بل تتناول هي عشاءها وتنام، إذ إنني أرجع دوما بتأخير في الليل، إلا أنها كانت مصرة أن تضع لي الطعام على طاولة المطبخ كل ليلة وقد غطته بعناية فائقة وبذوق واضح. وبمجرد أن أدخل البيت، فإني أصب لنفسي كأسا من نبيذ أحمر من قارورة مدسوسة في الثلاجة، وسرعان ما أتخلص من الطبق الفواح بروائح مغرية، بطريقة أتوخاها غير جارحة لها إذا ما دققتْ في الموضوع واكتشفتْ صباح اليوم التالي ما فعلتُهُ ليلة أمس بالعشاء. ومرت الليالي المعدودة الأولى

لوجودها عندي على هذه الشاكلة. العشاء على الطاولة، النبيذ في الثلاجة، ورقية نائمة على الأرض في الصالة، إلى جانب التلفزيون، في أقصى الزاوية البعيدة عن الباب. في الليالي التي تلتها، بقي كل شيء على حاله، سوى إن رقية صارت تنام على الأريكة في الصالة، والتلفزيون مفتوح على قناة MBC2، توم كروز يقفز من علو شاهق، ولكن بلا صوت. كنت أدخل شقتي وأحاول أن لا أصدر أصواتا كي لا تفيق، وأغلق التلفزيون، وأذهب الى غرفتي، محاولا عدم إيقاظ ضميري الإنساني وانا أراها منكمشة على نفسها في وضعية الجنين وقد خدشها البرد قليلا. ليال أخرى تلتها، كنت أدخل الشقة الصغيرة فأرى إن التلفزيون مغلق، العشاء على الطاولة، إلى جانبه كأس نبيذ مترع، ورقية نائمة في السرير الوحيد في المكان. وذات ليلة، وقد تأخرت إلى ما بعد منتصف الليل عند نور، حاولنا فيها أن نصعد من القبلات العنيفة وتمزيق الملابس إلى مضاجعة كاملة، لكن أمها فجأة فتحت علينا الباب وكنا نغرق في الظلام فلم تتبين شيئا بل سألت ابنتها قائلة: "أبجد مشى؟ مسكين وليدي كان واضح عليه جوعان". وغادرت بعد أن تمنت ليلة سعيدة لنور التي انفعلت ودفعتني عنها وشتمتني بأقذع الشتائم وأمرتني أن ألبس سريعا وأغادر دون أية كلمة وإلا فإنها سترتكب جريمة في هذا الليل. عندما وصلت شقتي ودخلت، لمحت كأس النبيذ ينتظرني والعشاء، والتلفزيون مفتوح على قناة أغان أجنبية، وثمة رائحة لطيفة في عموم المكان. شامبو! أكيد. بلسم للشعر؟ ربما. لست خبيرا لهذه الدرجة. كان النور خافتا في غرفتي إلا انه كان كافيا لكي ألاحظ إن السرير فارغ. خطوت نحو الصالة مرة

أخرى فإذا الأريكة مهجورة أيضا. وضح الأمر لدي. استحمت وخرجت. إلى الجحيم إذن. أتخرج في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ ما هذه المغامرة الحمقاء؟ فكرت في غرفة المكتب لكني لم أذهب اليها فهي على الدوام باردة ومظلمة. كنت اشتريت قبل يومين ديوان "الليالي كلها" للشاعر العراقي الراحل سعدي يوسف، لكي استرجع شيئا من أيام النضال الذي ذهب مع الريح. رميت ملابسي على الأرض مستمتعا بحريتي الليلة وقذفت بفردتي حذائي كل واحدة في زاوية من الغرفة، ودخلت الفراش رافضا من شدة حنقي حتى أن أفكر في رشفات النبيذ الأحمر. وقبل أن أتمكن من تحديد مصدر الصوت ونوعه وما يحف به ويسبقه من تيارات هوائية وعطور، كانت رقية تزيح طرف الغطاء من الجانب الآخر للسرير وتنجس في بنعومة أفعى، وتتشابك سيقانها بين ساقي وأشعر بملمس جسدها العاري دافنة رأسها في صدري، وقبل أن أعدل من وضعي لكي أستوعبها بشكل صحيح، كانت قد حزمت أمرها بقوة وصارت فوقي تماما، بينما كانت تحاول أن تدفع برجلها الغطاء ليسقط على الأرض وهي تسبه وتسب المعمل الذي صنعه، وتبدأ بالتهامي.

الثامن

يسقط الحائط الرابع

أنا جئت لأراك، نور. ليس لي غيرك عندما يصبح العالم مظلما والحياة حقل ألغام. لكني بالقدر الذي اشتهي لقاءك، فرائحتك تثير شجون جسدي المستنفر لك منذ أعوام وأعوام، بالقدر الذي أنزعج من تقريعاتك لي وانتقاداتك التي لا تنتهي لسلوكي الذي لا يعجبك مهما فعلت. فمتى سترضين عني؟

الله وحده يعلم. ههههها!!

تقحمين الله في هذه المواقف لأنه يجعلك متسلطة.

هيا، لا تثرثر كثيرا، دع الأشياء في المطبخ وتعال معي إلى الصالة.

والأغراض؟ أين أضعها؟

كل مرة تأتي بهذه الأشياء وأنت تعرف أني لا أتناولها لكنك تصر وكأنك تريد أن تبين لي كم أنت جنتلمان وكريم، وقد فهمنا يا سيدي ذلك، وكفى. لا تكلف نفسك مرة ثانية.

لماذا أنت سخيفة الليلة؟ ماذا جرى لك؟

لا شيء لا شيء. هيا تعال الحقني.

وأمك؟

استحمت اليوم. وأنت تعرف إنها عندما تستحم فهي لا تغادر فراشها أبدا حتى اليوم الموالي.

تخاف أن تموت. إنها متشبثة، خالتي أم نور.

اخرس. لا تحكي عن أمي بهذا الشكل وإلا طردتك خارجا.

لا الله يخليك لا تطرديني من جنتك. أريد أن أكون تحت أقدامك فيها..

عندما لا تكون مخمورا تكون مملا. وعندما تشرب تصبح مخيفا. أي عذاب يا ربي! لماذا أحببت نيافة الكاردينال؟

آه، الكاردينال، لم أسمعك تناديني باسمي الحركي هذا من زمان.

حركي؟ أي حركي أيها الوغد الزنيم. حركي؟ انه اسمك الحركي في منظمة الدعارة العابرة للجنسيات.

تظلميني دائما بظنونك.

أظلمك؟ شيؤك ينام في أماكن كثيرة دون تمييز. كل مرة أتركك لأجل هذا التسامح الجنسي الفظيع عندك، لكني سرعان ما أعود اليك. أكرهك اكثر، وأحبك اكثر. لقد أتعبتني! فعلا أتعبتني، يا كسمك!

سلطانتي، أميرتي، لنترك هذا كله. أنا جئتك لأكلمك في موضوع آخر، موضوع مهم.

رقية. صح؟

يا إله الراقصات! ماذا تقولين؟ أي رقية؟ من أين لك هذا؟ أنا جئت أحدثك عن تلك الورقة المطوية.

آه، المطوية!

لقد حصلت أمور خطيرة منذ آخر لقاء بيننا.

دعنا نجلس. استرح في جلستك. اهدأ وأخبرني بكل شيء.

أنيس!

ما به؟

تعرفينه. ذلك الشاب الحلاق الذي أحلق شعري عنده دائما!

نعم، أنت تذكر لي هذا كلما حلقت عنده ويجعلك تشبه عصفورا مبللا بالمطر، حتى إني حفظت اسمه..

مات. أو بالأحرى قتل. لقد اغتالوه.

يا إلهي؟ هل تحكي بجد؟

وهل أمزح بالقتل والاغتيال؟ ما بك؟

من اغتاله؟ الأمن؟ التنظيم؟ الجماعة؟

لا أعرف..

وكيف عرفت بخبر تصفيته؟

كل غمسيس تعرف. شغلي مخك..

آه، فهمتك..

أنا خائف حبي.

هل لك علاقة؟ لا تقل ذلك!

شبيك اليوم حبي؟ متعاطية حاجة؟ كيف يكون لي علاقة؟

مجرد سؤال. لا تغضب. تعال اجلس بقربي. تعال. تعال.

أنا تعبان.

تعال فأنت لن يهدئك سوى رائحة جسدي.

أنا قلق جدا إلى درجة إني لا أشم رائحتك المثيرة لي. تصوري!

نعم إني أتصور. سلاحي الوحيد للسيطرة عليك أفقد تأثيره الليلة.

سيصلون إلينا بمجرد التحقيق والبحث.

ألهذه الدرجة؟

آخر مرة رأيته فيها كانت قبل أسبوعين.

وبعدها اختفى؟

نعم، فقط اختفى. لقد تم البحث عنه بدون جدوى.

حسنًا، يجب علينا العثور عليه. لماذا لا نتصل به على هاتفه لمعرفة ما حدث له؟ فلنجرب!

حاولت الاتصال به عدة مرات، ولكن هاتفه مغلق دائما.

هل كان يعاني من أية مشاكل؟

لا أعرف بالضبط. لكنني أعلم أنه كان يعاني من بعض المشاكل المالية. ربما كانت هذه هي السبب وراء اختفائه.

ألم يتورط بالسياسة؟

لا لا أظن!

ألم تلعب بعقله؟ ألم تحشر أنفك في أفكاره؟

لا مطلقا لم يحدث. كنت لا أثق به تماما، فوعيه اجتماعي بسيط.

يجب أن نبدأ بالبحث عنه حقًا. ربما يكون في خطر.

أقول لك لقد تمت تصفيته! ركزي معي أبوس يدك. ولابد أن نتصرف بحذر. ربما تكمن أسرار خطيرة وراء اختفائه.

ليس لدي فكرة ولكن علينا العثور عليه وضمان سلامته. فلا تفترض تصفيته بدون دليل.

لقد تواصلت مع بعض الرفاق القدماء لكنهم قالوا انهم لا يعرفون شيئا عنه.

أحسنت! وسوف أتصل ببعض الأصدقاء أيضا ونتعاون لكشف الحقيقة.

مشكلة كبيرة حبي، لم يعد صديقنا الحلاق موجودا بعدا!

يا ترى ما الذي حصل له؟

لا أعرف لا أعرف، لقد تركت له رسائل، على الهاتف وفي محل عمله، ولكنه لم يرد.

تبدو قلقا جدا حبيبي. اهدأ قليلا. تعال إلى حضني. ودعنا نفكر ماذا سنفعل الآن؟

لا أدري، لكن أعتقد أننا يجب أن نتصل بالشرطة.

الشرطة؟ هل أنت مجنون؟ لا تفقد اتزانك حبيبي. اهدأ. أنت لن تفعل شيئا من هذا القبيل. لا أظنك تريد تدميرنا، أليس كذلك؟

حسنا. المعذرة. لا يمكنني التحدث بشكل متسرع. لكن يجب علينا معرفة ما حدث وكيف يمكننا تلافي تبعات الحدث هذا.

سيصلون الينا بمجرد التحقيق. لن يكون الأمر مستحيلا على ضابط التحقيق الجديد في المدينة، خاصة وأنه يكرهك بدون سبب.

هل هو نفس الضابط الذي سألكِ عني ذات مرة وأنتِ كنتِ في زيارة الى مقر البلدية لاستخراج وثائق أو ما شابه ذلك؟

لا، ذاك كان مساعده وهو يعرفني من زمان فهو أصيل مدينتنا وأخته كانت تدرس عندي.

يا إلهي، أية ورطة!

لا تولول كالعجائز. تماسك يا أبجد. ما عهدتك هكذا. لقد مررنا بمواقف أصعب من هذه بكثير. هل نسيت؟

لا لم أنس. لكننا قد تركنا التنظيم منذ سنوات. لا أنت ولا أنا بقيت لدينا أية صلة بالجماعة. وكنت أظن أنهم قد تركونا بسلام، والجهات الأمنية أيضا لم تعد تلاحقنا ولم تعد تدرجنا على قوائم الناس الخطرين.

في الوقت الذي تبدأ تثق فيه بالأمن والشرطة، تكون نهايتك.

لم نكن خطيرين في أي وقت مضى. كانت لدينا أفكار فقط. أحلام فقط.

حقا حقا دعني أسألك. وماذا عن تلك الورقة التي مررتها لي قبل مدة؟ لم أسألك لأنني كنت انتظر أن تخبرني أنت بنفسك دون أن أزعجك باستجواباتي السخيفة التي تكرهها.

لا شيء مهم. خدمة كنت أؤديها لأحد الرفاق بشكل شخصي وخارج إطار التنظيم.

لكنك تعرف خطورة هذا الموضوع عليك وعلي في هذا الوقت الدقيق والحساس. البلد يغلي والانفجار موشك على الحدوث والمسألة مسألة وقت وتراكمات.

أعرف وعيونك أعرف حبي، لكني مضطر. للرجل أفضال علي.

أفضال؟ أية أفضال؟

أفضال علي، وعليك أيضا، إن شئت!

عليَّ أنا؟ كيف ذلك بحق رب القحاب؟

شهادته كانت كافية لإبعاد شبح تصفيتنا من قبل رفاقنا أنفسهم.

يا إلهي، وهل تصدق ذلك؟

نعم أصدق ذلك وأكثر.

ولماذا لم تخبرني بكل مسلسلاتك المكسيكية هذه؟

كنت أفكر بالزواج وترك الماضي الحقير. كنت أريد طفلا منك لأسميه "علي". يا أمّ علي!

بفففففف أنت تثير ضحكي وتثير شفقتي عليك، والأكثر من ذلك فأنت تثير حنقي. ما الذي يحصل معك؟ هات أخبرني. ما الجديد الذي غيرك وجعلك مترددا ضعيفا؟ هات، احكي لي.

عندما ذهبت إلى داره لأستفسر عنه، كان ثمة شخص آخر هناك. شخص يخيل إلي أنني ربما أكون قد قابلته في وقت ما.

أخبرني بالتفاصيل. هيا وبسرعة. أنت تنقل قلقك إلي!

الرجل كان يدعى يونس أو يوناس أو جوناس، لست أدري.. وهو يعمل حلاقا أيضا. قال إنه رأى أنيس، وأنه أخبره أنه سيغيب لعدة أيام.

وهل يونس هذا يعرف أي شيء عن وجهة أنيس للاختفاء؟

لا. فقط وجدته لا يتحدث كثيرا ولا يكشف أي غموض. ولكني شبه متأكد انه يعرف معلومة ما.

يجب أن نذهب إليه، ونحاول العثور ولو على خيط يدلنا على صديقك قبل فوات الأوان. هذا اليونس ربما لديه معلومات.

في الحقيقة حصل شيء غريب عندما كنت أتحدث إليه ذلك اليوم.

ما الذي حصل؟ احكي لي يا دين ربك، احكي لي كل شيء مرة واحدة. لماذا تحاول تعذيبي بهذا الشكل؟

لقد اقترب مني وقال نحن أيضا لدينا مزيد من الأسئلة، هل يمكننا التحدث معك على حدة؟ وعندما سألته ما المقصود نحن؟ من أنتم بالتحديد؟ اقترب أكثر وبدأ في التحدث بصوت منخفض، مما أثار اشمئزازي قبل هلعي!

إيه إيه، ثم ماذا؟ ما الذي حصل؟

لقد لاحظت شيئا غريبا في طريقة يونس في الحديث. فمرة يحكي بصوت منخفض ومرة بصوت مرتفع، وعيناه تتنقلان في المكان مثل عصفور مذعور، حتى انتبهت بالصدفة إلى أنه يحمل مسدسا في حزامه. كان يغطيه بطرف قميصه، لكنه كان سهلا أن يُرى من تحت القميص الشفاف والجاكيت القصير الذي يغطيه.

وماذا فعلت أنت؟

ماذا فعلت يعني؟ غادرت المكان مسرعا بل راكضا نحو الخارج باحثا عن أول تاكسي يعرضني!

أية ورطة نحن فيها يا أبجد، أية ورطة! ما الحل؟ ما الحل؟

لست أدري حبي. أنا في شلل تام. لا أستطيع التفكير، لا أستطيع.

لنهدأ يا حبيبي لنهدأ. يجب أن لا ننجر إلى فخاخهم.

نعم لنهدأ لنهدأ.

لنغير الموضوع.

نعم لنغير الموضوع قليلا. يكفي ضغط وأعصاب.

عندك الحق. والآن، دعنا من أنيس واختفاء أنيس. وهات حدثني عن تلك الـ روقاييه..

من؟

روقايييياااه الخرية.. قطعة الغائط تلك التي اسمها رقية! ألا تعرف اسمها؟

ماذا دهاك حبي؟ ما هذه التعابير؟ ولماذا تنطقين اسمها بهذا الشكل؟ ما الذي جرى لك حبي؟

لا شيء لا شيء.. فقط حرقة صغيرة من نار الغيرة.. ألست امرأة؟

بل سيدة نساء العالمين. وأنت تعلمين جيدا اني لا أحب غيرك فلا تكوني مجنونة.

احكي لي كل شيء مهما كان الأمر مؤلما. الحقيقة بلسم الجروح.

عن أي شيء؟

عن رقية. تلك الفتاة الصغيرة الجميلة التي يبدو انك قد ورثتها عن صاحبك الحلاق.

لا شيء. لم يحدث شيء.

أهاااا، بالضبط! هيا احكي لي عن ذلك اللاشيء. عن ذلك الشيء الذي لم يحدث.

قلت لك ليس بيننا أي شيء سوى إنني أوفر لها المأوى لفترة محدودة بسبب اختفاء صاحبها أنيس، خاصة وإن الشرطة تبحث عنها.

كشاهدة أم كمتهمة؟

لست أدري في الحقيقة، ربما الإثنتين معا.

أعلم أنها عندك منذ عدة أيام. في النهار أنت تعمل وتخرج بطبيعة الحال. ولكن تعال أخبرني عن الليل عندما ترجع للبيت وهي هناك. ما هي خارطة الطريق، كما نقولها في السياسة؟ حدثني عن "الليالي كلها"، كما قال سعدي يوسف. قل ولن أزعل. الحقيقة فوق كل شيء. هذه عبارتك أنت وأنا تعلمتها منك.

نعم، الحق معك. ليس هناك أفضل من الحقيقة، مهما كانت الظروف.

إذن هاتها تلك الحقيقة، رغم الظروف. لن أزعل. أعدك.

في الليلة الأولى، نامت على الأرض في المطبخ. في الليلة التالية، نامت على الكنبة في الصالة. في الليلة الثالثة، عدت إلى البيت متأخرا فوجدتها نائمة في سريري وسرعان ما فيقتها من نومها وطلبت منها أن تغادر السرير حالا وتذهب لتنام في الصالة. في الليلة التي بعدها تسللتْ كالقط إلى الغرفة وأزاحت طرف

الغطاء واندست في الفراش دون أن تحاول إيقاظي. في الليالي التي بعدها كانت قد بدأت تنام وهي تمرح مع آلهة الحب وحوريات الجنة.

التاسع

أبجد

كان أبجد يحب نور "من جواجيه". والجواجي مفردة تونسية تعني أعماق الروح. كانا يقضيان الليالي معاً، يشعران بالحب والأمان في مدينة ليس فيها حب ولا أمان. فقط يتحدثان ويضحكان خلسة طوال الليل. لكن في الآونة الأخيرة، كان أبجد يفكر بالسفر إلى الخارج خلسةً من دون أن يخبر نور بذلك.

وعلى الرغم من أن نور كانت سعيدة بنجاح أبجد في الحصول على وظيفة جديدة في الميناء بصفة مترجم، إلا أنها كانت قلقة بشأن ما سيحدث لها بعد ذلك. تقع الأشياء في مكانها، حيث تبدأ نور في التفكير بشأن حياتها البائسة التي ستعيشها بدون أبجد لو أنه ترك هذه الوظيفة أو تم طرده منها. لقد قضيا الكثير من السنوات معًا، ولم يتخيلا الوجود بدون بعضهما البعض. ولكنهما أيضا قضيا سنوات عديدة وهما منفصلان عن بعضهما البعض بحكم المسافة. وتجربة مكوثه لسنتين ماضيتين في العاصمة بذريعة العمل ما زالت ماثلة لعينيها، بجحيمها وبردها ووحدة لياليها.

الليالي بدأت تتلاشى مع كل لحظة من الوقت الذي يقضيه أبجد "داخلها"، هي التي يسميها البيت والمسكن، رمزيا وجسديا. فجأة تذكر كل ما عاشاه معًا وأدرك كم هو مهم الوجود معها، والدخول فيها إلى درجة المكوث. والمغامرة لا تعني الابتعاد عن حبيبته، بل يمكن أن يمتد الحب ليشمل العالم بأكمله. كان يسميها "إيڤا" تيمنا بجمال الممثلة العالمية إيڤا گرين، منذ أن شاهدها في فيلم "كازابلانكا" الشهير. انهما تتشابهان إلى درجة مذهلة، وخاصة في الأنف المستدق الطويل وفي العينين القويتين العميقتين، وفي الطول والقوام والجسد الرشيق. وقرر أيضاً تقديم الطلب الذي سيجعله يتدرب بالخارج لبضعة شهور فقط، ليعود بعدها إلى "إيڤا"، نور العيون.

وبعد مرور الشهور، يعود أبجد من العاصمة مليئاً بالأفكار الجديدة والخبرات، ولكن أهم شيء هو أنه عاد إلى "نوره". وكانت الليالي تعود للحياة، يجلسان سويا في سكون لكن بأفكار صاخبة تحكي عن الأمور الجميلة التي عاشاها بمفردهما. والحب يتّقدُ بحرارة من جديد.

لكن أبجد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. وكان يقوم بأشياء تثير ريبة نور وخوفها، وعندما كاشفته مرة قال لها لا تقلقي مجرد إن الرفاق القدماء في التنظيم احتاجوا إلى بعض الخدمات لا أكثر، أما أنا فلن أعود إليهم مطلقا. لقد اتفقنا وانتهى الأمر. فلا أنت

ولا أنا سنعود لتلك الجماعة الغبية السيئة التي استهلكت أعمارنا بلا طائل.

كانت الأجهزة الأمنية تطلق عليهم صفة وتسمية قد لا تكون دقيقة تماما. كانوا يسمونهم "الشيوعيون"، وما هم بشيوعيين ولا هم يحزنون، بل إن عامة الناس في غمسيس وما جاورها كانوا أطلقوا عليهم هذه التسمية عندما أشيع عن معظم عضوات وأعضاء الجماعة إنهم مختلطون بلا حدود، متحللون من التقاليد، ولا يقيمون العبادات، وإن نساءهم يلبسن السراويل، ويقرأن كتبا بأغلفة حمراء وعليها رمز المطرقة والمنجل.

في البدء جاءه تحذير صريح من مخبر يشتغل جاسوسا للأمن في الميناء عندما كانا يحتسيان قارورتي بيرة في المقهى المخصص لقباطنة السفن الأجنبية، إن عليه أن ينتبه أكثر ويختار من يقابل ومن يصاحب، ثم بعد أقل من أسبوع، تم القبض عليه. جمعت عن أبجد معلومات كافية لاعتقاله. فإن معظم الناس الذين كانوا يلتقونه كانوا من النوع المتعلم من المشبوهين الذين يصنعون الثورات، ولكن بجانبهم كان هناك ممولون يلعبون من أجل المال. يمكن للرجل الذكي أن يحقق أرباحا كبيرة في سوق هابطة، من ثلاثة أسواق تتحكم بغمسيس وتتمحور حول مينائها: سوق المخدرات، سوق البغايا والعاهرات، وسوق الحرْقَة، وهي التسمية المحلية للهجرة غير الشرعية إلى أوروبا عبر قوارب الموت المنطلقة من ميناء المدينة على مدار العام. كان "الحرَّاقون" من مختلف الأعراق والأجناس والجنسيات

والطبقات والقوميات والأديان. وقد كان مناسبا للجميع التوجه لأوروبا، حيث الجنة الموعودة.

كان ثمة سؤال يحير أبجد، وقد أخبر نور بتوجساته. تحدث عن بعض الأشياء الغريبة التي لاحظها في الميناء، ولماذا اختفى بعض الرجال فجأة. عندما سأل عن السبب، أجابه أحد الرفاق إن الكثير من "الشيوعيين" يعتقدون أن ذلك سيعطيهم فرصتهم. كل شيء سيكون في مصهر الطبقات، وإن الثورة لقادمة لا محالة. وكانوا يتطلعون لرؤية عالم جديد يبزغ. كان الأثرياء يجمعون القرش ويحققون ثروات من خلال شراء كل شيء ومن ثم بيعه، ويحرسهم في ذلك رجال السلطة. هو يعرف إن رأس المال ليس له ضمير ولا وطن، لكنه يعلم أيضا إن المعركة خاسرة. لقد ربحوا إلى حد ما، وكسبوا شيئًا أكبر من المال، شيئا لا يمكن شراؤه، غرائز القتال الأولية القديمة للإنسان. هكذا فاز فريق السلطة والإقطاع ورأس المال والمهربين وأخذوا على عاتقهم مهمة تربية أناس بلا ضمائر يستسيغون رائحة الدم وهم ينهشون لحوم أبناء جلدتهم بشراهة دون أدنى وازع، وكل ذلك بسبب توفير بعض الأموال والمكتسبات التي تغذي بدورها غريزة الحيوان الكامنة داخلهم تحت ذريعة انهم إنما يدافعون عن الأمور الصحيحة في المجتمع ويحاربون أتباع الضلالات والبدع. "لكن رفاقي لم يلعبوا أوراقهم الأخيرة بعد. لقد حصلوا على ورقة الجوكر، وسيطرحونها على طاولة اللعب في الوقت المناسب. وكم أتمنى أن أبقى على قيد الحياة لكي أشهد ذلك اليوم. أعرفهم، فسوف يلعبونها ويفوزون".

كان الهدف قد تم تحديده خلال الإثني عشر شهرا الماضية. لقد اكتشف ذلك، (ليس لأنه كان صعبا، فإن أيّ أحمق يمكنه أن يخمن بنفس القدر) لكنه اكتشف الطريقة التي سيحصلون بها على شرارة التمرد والعصيان. وكانت تلك المعرفة قاتلة. ولهذا السبب تم اعتقاله.

ظنت نور إنهم سيطلقون سراحه بعد ليلة تعذيب وتحقيق واحدة. لن يجرؤوا على قتله. لا لن يجرؤوا. هكذا كانت تقول لنفسها بصوت مسموع، إرضاءا لروحها الخائفة القلقة. "لا، لن يفعلوا". قد يملؤون مدينتها بالمحققين بملابس مدنية ويضاعفون الشرطة ويزرعون المخبرين والجواسيس، لكن أبجد سيظل رجلاً محكوما عليه بالفشل. وهم سيدركون هذا وسيقدرون فشله الأزلي وإنه فم مفتوح وحسب، فم مفتوح للحلوى وللقبلات المختلسة وللانتقاد. فم يثرثر فقط، بالشعر والفضيلة، أما الفعل فلا يوجد. الحاكم لا يلعب مع الشعب هذه اللعبة من أجل الحلوى. إنهم يريدون معلومات وأدلة ووثائق وحركات. أبجد لا يملك أيا من هذه. وبسبب إدراكهم لتفاهته وفشله فإنهم سيطلقون سراحه. يا رب يا رب يا رب. ستكون كل الشكوك حوله كذبات جهنمية، لكن القضية ستبدو فارغة بما يكفي لقرار إطلاق السراح.

لكنها لم تؤت ثمارها ذلك الوقت العصيب. كان الدم في الشوارع، والنيران تلتهم الأفئدة، والصراخ يملأ المكان ولا أحد يستمع لأحد، فالكل كان يتكلم. وأحيانا كثيرة كان يسمع صوت الرصاص من مسدسات محشوة وبنادق رشاشة ومدافع. وإذا

ما كان هنالك من رجل معين يعرف كيف يوقف عجلات الزمن ويبقي الصورة على قيد الحياة فسيكون هذا هنا في لندن وعلى جسر ويستمنستر تحديدا في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر أيلول. وسيكون ذلك الرجل خادمك. فوق الجسر توقفا وأمسك بيدها وقال لها أنا أحبك وهذا نهر التيمس يشهد على ذلك. كان سيحب الفصل الأخير، لكن فمه انغلق مثل مصيدة الفئران، وكانت هناك نيران المعركة حامية الوطيس في عينيه الجذابتين. إنه يغزل لها خيطا يمكنها فيما بعد التصرف فيه وفقا لذلك. "أين وجدت هذه الملف؟" سألت. "وماذا أسميته؟". لم يَحر جوابا: "تلقيت أول تلميح بهذا الخصوص في فندق على شاطئ البحر في مدينة سوسة جوهرة الساحل"، أجاب، "مما دفعني ذلك إلى الاستفسار، وجمعت أدلة مهمة أخرى في متجر للملابس المستعملة في الحي العربي في مارسيليا، وفي نادي الغولف في باريس، وفي مكتبة صغيرة لبيع الكتب القديمة قبالة شارع ماستروياني في بروكسل. أكملت أدلتي قبل عشرة أيام في باريس. لا أستطيع أن أخبرك بالتفاصيل الآن، لأنها أمست أشياء من التاريخ، بيد أني وضعت لكل ذلك عنوانا دالا: إيموشنز: عواطف". قالت "عندما كنت متأكدة تماما في ذهني أنك ستتمكن من العثور على الوثائق، قررت أن عملي سيتوقف. اكتفيت فقط بالبحث عنك في مدن الغربة والصقيع والمنفى". "وهل هذا قليل يا نور عيوني؟". ابتسمت وأمسكت بذراعه واحتضنتها. أردف قائلا: "لقد وصلت إلى هذه المدينة الكولونيالية العظيمة عن طريق الفوز برهان غريب. فبالرغم

من كل شيء، روح المقامر تسكنني، وذاك ما كنت تعترضين عليه يا نور طوال الرحلة".

"لقد وصلنا". قالت.

العاشر

بائعة الخبز

ما الذي ألمَّ به؟ يبدو غريبا جدا. لماذا يموّه نفسه هكذا؟ أنا متأكدة أنه هو، أعرف خطواته، أعرف حركة يده اليمنى حين يمشي بينما اليسرى يضعها في جيب سرواله، وميلان رأسه الطفيف جهة اليسار. يمشي شاردا في أفكاره معظم الوقت لكنه سريع الملاحظة لا يفوته أي شيء. أنا متأكدة أنه رآني، وسمع ندائي. لكنه تجاهلني ومضى كأنه لم يعرفني يوما. لا بد أن أمرا غريبا قد حدث معه. وهذا يبرر عدم زيارته لي منذ فترة وعزوفه عن الرد على اتصالاتي.

رافقت أمي إلى مراجعتها الطبية الشهرية، في طريق العودة اختصرنا الطريق بمرورنا من درب خلفي من النادر أن يمرق منه أحد نظرا لسمعته السيئة فهو يحتضن جلسات خمرية لا تُعدّ. وحتى لا تتعب أمي من المشي بعد أن فشلنا في العثور على سيارة تاكسي اضطررنا للعبور منه. وكان من المريح أننا لم نتعثر في أي من السكارى. وكان مفاجأة أن يعترضنا أبجد في ذلك الدرب. بدا كأنه يتحاشى لقاء أي من البشر. أربكني منظره ونظراته المسترابة وسرعته في تجاوزي.

الشك، حين يتصاعد في داخل المرء الشك كشجرة لبلاب، يعرش على العقل والجوارح كلها. سأجرب مجددا. اتصلت به أدعوه لتناول العشاء. أعرف أنها ذريعة سخيفة، حتى وإن رفض لا يعني ذلك شيء. ولكن حدس الأنثى بداخلي لا يخطئ أبدا. عند الاتصال الثاني عشر أجابني. وصلني صوته بعيد وهادئ أكثر من اللزوم، مما زاد شكي فيه أنه يقوم بأمر سري.

-ماذا هناك؟ هل حلّ يوم القيامة؟

-أحبابك افتقدوك فرأوا أن يدعونك على العشاء.

-بالله عليك نور لا تمزجي معي، تعرفين أنني مشغول.

-مشغول إلى درجة أن تتنكر وتهرب عند رؤيتي؟

أفحمه جوابي المتسائل. صمت قليلا وأكمل:

-متى؟ أظن حصل معكِ خَلطٌ ما.

-لن أتجادل معك. هل ستأتي للعشاء. هناك أمر هام أودّ إخبارك به.

سمعت من جهته غمغمات متداخلة لأشخاص قريبين منه وقطه "غوست" الذي يعيش معه ويؤنس وحدته. ثم فجأة انقطع الخط وبقي طلبي معلقا. ومن يومها لم يرد على أي من مكالماتي. لا ينقطع الرجل فجأة عن امرأة تهمه إلا إذا دخلت امرأة أخرى على الخط، وإن وجد عندها شيئا أفضل سينسى صاحبته القديمة ويصب كل اهتمامه على المرأة الجديدة. لا أدري لِم هذا الخاطر يسيطر علي كلما فكرت في أبجد وسرّ تغيره

المفاجئ. أعرف تماما أنه رجل له شبكة علاقات واسعة ولن أتفاجأ بصداقاته التي تجمعه بالنساء. لكنني كنت دائما فوق التصنيف. أحيانا يغيب فترات متباعدة ثم يظهر. يأتي إلى البيت دون أية مواعيد مسبقة، حيث يعلم أنه مرحب به على الدوام. كلما أتى لزيارتي أعرف أنه القادم من طرقاته على الباب. كان هو الوحيد الذي لا يدق الجرس. ليس سهلا أن أنساه هكذا بمجرد أنه اختفى. مهما كان السبب سأعرف ما يحصل معه. لعله واقع في براثن إحدى عصابات التهريب، من يدري؟ إذ لم يغادره حلم السفر خلسة. يجب أن أتأكد من ذلك بنفسي.

اعتمدت نفس أسلوبه في التمويه، لبست ملابس رثة، وضعت غطاء فوق رأسي وثبته بعصابة حول جبيني، رسمت بعض الكدمات الزرقاء على وجهي بملون الجفون وانتعلت جزمة حرصت على تقطيعها من الأمام. من جميل الأمور وجود عربة طفل مركونة في الحديقة الخلفية لبيت الجيران. قفزت من السور الفاصل بيننا حملتها وعدت، حيث أضفت وعاء كبيرا إليها. وسرت ناحية المنطقة التي يسكن أبجد وبين الفينة والأخرى أصرخ بصوت قصدت أن يكون خشنا ما أمكن "خبز بايت، خبز بايت".. وكلما استمعت الى نفسي أصرخ بتلك الطريقة أضحك بداخلي وارسم ابتسامة صغيرة على شفتي، كان يجب أن أتقن الدور دون أي خطأ. واسترجعت مقولة أبجد الذي كان كلما رأى شيئا عجيبا خارجا عن المألوف، ردد "آه، كم فيك من الموبقات يا غمسيس". فعلا غمسيس هذه المدينة المنسية تدّعي أنها مدينة بحرية، لكن البحر براء منها. كل من

سكنها دخل عوالم سرية من بوابة الميناء، أو جعلته ضحية إهمال، مواطن درجة خامسة وسابعة. غمسيس مدينة يرعاها ويطعمها التهريب. لا أحد ينكر ذلك والكل متواطئ. اذا لم تدر عجلة التنمية الموعودة، التهريب خير معوض لنسيان الدولة منح نصيب غمسيس من العيش.

دفعت عربتي وصوتي الخشن يردد بين الفينة والأخرى "خبز بايت، خبز بايت" حتى وصلت الشارع الفرعي الذي يسكن فيه أبجد. انفتحت نافذة من أحد المنازل المكون من دورين. أطلت امرأة كبيرة السن ترتدي زيا تقليديا بدا جليا من الخلال المستقر طرفاه على جانبي الصدر حيث يثبتان أطراف الملية. رمت باتجاهي كيسا مليئا ببقايا الخبز وألحقت به صرة قماشية وقالت "هذه خبزة طابونة ساخنة، هي من نصيبك، على رحمة ولدي الذي أكله البحر". وأغلقت النافذة دون أن تسمع لكلمات شكري المندهشة. لأول مرة أجدني في موضع شفقة ما جعلني جديرة بالصدقة. شعرت ببعض الألم ولكنني أخرسته مرغمة وأكملت إلى آخر الشارع الفرعي باتجاه بيت أبجد "خبز بايت، خبز بايت، خبز بايت، خبز بايت" ألححت في النداء تحت النافذة. وحين يتعب حلقي أصمت لوقت، ثم سرعان ما استأنف ندائي. أخيرا فتح أبجد نافذته. وبدل أن يطل هو بين الدرفتين. أطلت فتاة غاية في الجمال رغم شعرها المتجعد. نادتني على استحياء من فوق لأقترب ورمت لي كيسا مليئا بالخبز وعلبة بلاستيكية. أصابتني العلبة في رأسي فأخرجتني من ذهولي. بينما الأسئلة تتوالد في رأسي بلا نهاية. من تكون هذه الفتاة؟ لماذا

تحتل بيت أبجد؟ هل غير أبجد سكنه إلى منزل آخر؟ لماذا لم يخبرني؟ لملمت العلبة والكيس ووضعتهما في الإناء أمامي. توغلت في نهاية الشارع. اختبأت خلف حاوية الفضلات الكبيرة، من حيث أستطيع رؤية منزل أبجد. وبدأت المراقبة بكل جدية رغم قلقي من مرور الوقت ووصول موعد تناول أمي للدواء. بدأ النهار ينسحب، وأرتال الناس العائدة إلى بيوتها تمر من الشارع. لم أيأس، ظللت مكاني، أسكت ضميري الذي يؤنبني لتفويت الدواء على أمي. مع هبوط أول جحافل الظلام رأيته في رأس الدرب يتأبط كيسا كبيرا ويسرع الخطى. فتح أبجد الباب المشترك ودلف. سرعان ما اشتعل النور. تتبعت الجدار حتى بلغت أسفل النافذة حيث تناهت الى مسامعي ضحكات ماجنة يطلقها أبجد وتلك الفتاة ومواء القط غوست. تركت عربة الخبز ونسيت أنني عجوز من فرط غيضي. أطلقت أقدامي تركض بي إلى البيت. قصدت أمي لأناولها جرعة الدواء التي خلفتها. فوجدت رغوة بيضاء تملأ فمها، وزرقة امتدت على وجهها وأطرافها. بجنون طفقت أغطيها وهي لا تبدي حراكا.

إن الحديث عن بكائي لفقدان أمي مؤنستي لن يجدي نفعا. أنا امرأة ككل النساء الموغلات في شتى المشاعر المتناقضة، ومن المفترض بي أن أحزن كثيرا، لكن غيرتي طغت على كل شيء وأطلقت شرارة شري الكامن. رأيت صدق أبجد وهو يواسيني ويحضنني كثيرا، ويبادر بتحمل كل المسؤوليات. لا أدري من أبلغه بوفاة أمي، حيث أنني وجدته تلك الليلة معي. سجى الجثمان وغطاه ، ثم ذهب ليبلغ الجيران، بينما أنا انشغلت

بإبلاغ أخوتي الذكور الذين يعيشون في أوروبا منذ سنوات ولم يعد أي منهم بسبب عدم حصولهم على وثائق إقامة تشرع تواجدهم هناك.

من بقي في غمسيس غير النساء الخانعات في البيوت والشيوخ وبعض الشباب الذي لم يجد فرصة للذهاب؟ معظم الرجال ركبوا البحر خلسة ووجهتهم كانت واحدة: جنة أوروبا، حيث العملة الصعبة والشقراوات المغريات. أغلبهم وصل، ومنهم من خانة القدر فالتهمه البحر لحظة غضب، بينما بقي أهاليهم ينتظرون ولو بقايا عظم أو لباس لحجز قبر. المرء يحتاج دوما عيّنة مادية حتى ينتهي الوجع ويمر إلى النسيان.

قد ننسى كل فقيد في البحر وفي الغربة، لكن من الصعب نسيان جريمة أو خيانة. لقد خانني أبجد بعد كل هذه السنوات. لقد ظننت أنني روضته قليلا لكنه أثبت أنه جموح لا يمكن السيطرة عليه، لوهلة صدقت أنه لا يرى غيري، وأن أنفي الطويل هذا والحَوَل الطفيف في عيني وتلك الشامة في خصري كلها قد أسرته كما كان يخبرني دوما. حتى أنه كتب قصائد كثيرة عني ونشرها في مختلف الصحف. لماذا يخونني إذن؟ لن أسامحه على فعلته تلك. لقد دخلت طور التحول الآن. رغم ركضه وحرصه على مساندتي وإرضائي عند وفاة أمي. طلبت منه أن يؤمن لي معينة منزلية على وجه السرعة. كانت خطتي دقيقة جدا. وكما توقعت، فقد جلب رفيقته التي تشاركه الشقة. لا خيار أمامه تلك اللحظة، لكَم بدا لي غبيا. كان يمكنه الرفض أو التنصل، لكن طيبة قلبه وطول العشرة بيننا جعلته يستجيب لي بسرعة.

ها هما الآن أمامي أرقبهما بين جحافل المعزين. كلما التقيا تبادلا نظرات حذرة ومرا كأنهما غريبان. وحين سألته من أين جلبها إدعى أن أنيس الحلاق قبل وفاته بيوم طلب منه أن يؤمن لها عملا. ووجدها فرصة مواتية حين طلبت معينة. أي متعة هذه التي تجعلني أضحك على ارتباكه وهو يختلق قصة هذه المعينة. في النهاية سأعرف كل التفاصيل كما أشاء أنا.

بعد أيام، عنّ لأبجد مغادرة الشقة على جناح السرعة. رأيته يحمل كيسا بلاستيكيا مليئا بيد وحقيبة مفتوحة بها بعض الثياب. لم أعترض على ذهابه سيعود لي في آخر المطاف وسأحاسبه على فعلته تلك. سأسلط كامل تركيزي على رقية هذه الفتاة الحمقاء. تبدو ساذجة جدا رغم حذرها المزعوم. سأتسلى كثيرا بصحبتها خاصة بعد رحيل كل الأقارب.

طلبت منها أن تجهز كوبين من القهوة، يا لها من ملعونة تعد قهوة لذيذة رغم رداءة البنّ الذي يصلنا مهربا. لا شيء يحمل طابع الجودة في غمسيس، فقط التهميش الذي سبق معايير الجودة المتفق عليها. قدمت تحمل الكوبين ولسان حالها يتساءل عن أبجد الذي اختفى، فلمن الكوب الثاني؟ وضعت الطبق أمامي واستدارت لتعود إلى المطبخ غير أنني أمسكت يدها أجلسها على المقعد أمامي. دعوتي لها لشرب القهوة معي أثارت استغرابها وحذرها. لاح ذلك من خلال حديثها وهي تخبرني بقصة حياتها حيث غاب الرابط المنطقي بين أحداثها.

أنا لست من مدينة غمسيس تحديدا، أنا أنحدر من إحدى القرى المنتشرة حولها. نشأت هناك نشأة قاسية. مبكرا غادرت مقاعد الدراسة حيث أجبرني أبي السكير وأنا في السادسة عشرة على الزواج من سكير مثله بعد ما جعلني جائزة لمن يفوز برهان القمار. تبّاً له مِن أبٍ، من يومها وحياتي مجرد لعبة شبيهة بالقمار أربح مرة وأخسر مرات. في إحدى الليالي وبعد أن أجبرني زوجي على إعداد مستلزمات جلسة خمرية ضربني ضربا مبرحا وقيدني إلى السرير. تركني وذهب يستقبل أصدقاءه بمن فيهم أبي. وحين تعتعهم السكر توافدوا على الغرفة واغتصبوني في حفل جماعي، وحين تعبوا، تهالكوا حولي نائمين. كدت أموت لولا بعض شفقة حركت قلب زوجي حين صحا من نومه وسكره، فحل وثاقي. أغلقت على نفسي الحمام وجلست تحت صنبور الماء أبكي وأحك جلدي أود سلخه بكل اشمئزاز. أفقت على ضربات تكاد تكسر الباب وصراخ زوجي المتوعد بسبب إهداري للماء. عالجت جراحي وخلدت إلى النوم بينما اعتذارات زوجي الكاذبة لا تتوقف. نمت طوال اليوم، استيقظت وزوجي اللعين يرجني رجا في السرير. طالبني مجددا بتجهيز جلسة خمرية. فعلت ما طلب. وحين انهمك مع رفقته السيئة في الشرب تسللت من البيت بعد أن حملت معي بعض النقود التي ادخرتها وقلادتي الذهبية الوحيدة. لطالما كان الليل ستارة للحكايا والهاربين. ركضت حتى كلت قدماي. لم أتوقف إلا بعد أن توارت القرية خلف الجبال. مشيت بهمة إذ لم تغادرني فكرة أن زوجي سيتفطن لهروبي وسيلحق بي حتى شاءت الصدف أن مرت بي سيارة في ذلك الليل البهيم وأنا لا أغير دربي، إذ سلكت الطريق

الجهوية التي توصلني الى وسط غمسيس. توقفت السيارة. كان يقودها شاب وبرفقته رجل وعجوز مسنة وامرأة أخرى في مقتبل العمر. سألوني عن وجهتي فقلت بلهفة أريد بلوغ غمسيس. صعدت السيارة واستندت إلى الباب ونمت من فرط تعبي. أيقظتني نكزات العجوز، تسألني عن مقصدي فقد بلغنا غمسيس. لم أحر جوابا، وبدهاء العجائز فحصت مظهري في ضوء الشارع الرئيسي وفهمت أنني هاربة. حثت ابنها على المضي بعد أن أفهمته أنني نسيت العنوان الذي أقصده. قضيت ليلتي عندها. وفي الصباح رويت لها وجعي فاستبقتني عندها لأخدمها. لم أخرج من بيتها إلا حين أتيت الى بيتك.

يا لها من كاذبة هذه الرقية تدعي أن عجوزا أنقذتها هكذا ببساطة. من يجرؤ على ذلك في وقتنا هذا الذي يخاف فيه المرء من ظله فما بالك بأن تدخل غريبا بيتك، ثم أنها لم تذكر لي ولو اسما واحدا من أسماء الأشخاص الذي ذكرتهم، ناهيك عن مدى صحة القصة أصلا يكفي أنها مرت ببيت أبجد قبل أن تأتي إلى وهذا سبب كاف لأجعلها تدفع ثمنا لكذبها وثمنا لمزاحمتها لي.

حثثتها على شرب القهوة، ثم عالجتها بسؤالي:

-عند أي عائلة كنت؟ ما لقبهم وإلى أي قبيلة ينتمون؟ أنا أعرف معظم عائلات غمسيس.

ارتعش الكوب في يدها وجحظت عيناها قليلا، ثم تظاهرت بالانغماس في رشف القهوة مرات متتالية، بعدها قالت:

-عائلة الفضالي!

-الفضيلي؟

-لا لا الفضالي، وحسب علمي أصولهم ليست من غمسيس.

-ربما هو كذلك. ما صلتهم بالحلاق الفضالي الذي قتل من فترة قريبة؟

امتقع لونها وأجابت بسرعة:

-لا علم لي بوجود صلة بينه وبين تلك العائلة. إنها مجرد مصادفة.

-تمام. هيا قومي، ستذهبين إلى الصيدلية. اسألي عن سي محسن، قولي له أنك من طرف مدام نور، وسيسلمك دواء مهما. عودي بسرعة، وأحذرك من فتحه. هل فهمت؟

دفعتها بقوة فسقطت أرضا، لملمت نفسها وغادرت صاغرة. ما الذي يدفعها للبقاء عندي رغم تعمدي إيذاءها كل مرة؟ إن لم تكن هاربة من أمر معقد فبالتأكيد هي مساهمة في قضية ما. وحاجتها للمال مجرد تمويه، في حين مطلبها الأول الاختباء. محتالة رقية هذه رغم سذاجتها البادية على وجهها. سألقنها درسا لن تنساه.

كان لي أمل أن أعثر على أبجد. اتصلت به عشرات المرات وما من مجيب. هاتفه مغلق منذ أيام طويلة. انتظرت حتى عادت رقية من الصيدلية. أوصيتها لتطبخ لنا عشاء شهيا تحبه، وخرجت أقصد بيت أبجد لعلي أن أجده هناك. أخذت المفتاح المخبأ في مكان سري. دلفت إلى الشقة. بدت مهجورة مكتومة الهواء رائحة

الغبار تخنق الأنفس. فاجأني القط غوست وقفز علي بينما أتفقد المطبخ. ومن فرط هلعي الطارئ عالجته بسكين فخر ميتا، ثم غادرت على عجل. تمشيت هنا وهناك لأفتت شعوري المندهش وأمسح حادثة قتلي للقط من ذهني. من أين أتى هذا العنف؟ فعلا البشر مزيج من المتناقضات.

ألهيت نفسي بالتفكير في رقية بينما قدماي كانتا تحملاني دون تركيز مني. أحاول إيجاد روابط بين أجزاء قصتها المبتورة. أتكون الصدفة محكمة إلى حد أن تكون رقية قد نجحت في هروبها حين التقت بأنيس الفضالي الحلاق وهو يسير بعربته ليلا عبر الطريق الجهوية صحبة عائلته؟ لقد حدثني أبجد عنه كثيرا. كان يعتبره صديقا مقربا بسبب ثقافته الواسعة وتحليله العميق لأخبار السياسية. أبجد الرجل الموسوعة لا ينجذب إلا لأشخاص يشاركونه نفس الشغف، السياسة والثقافة. لن أستغرب إن كانا يترافقان تلك الليلة وأقلّا رقية. أعرف أن أنيس له أم مسنة لا يعيش معها لكنه يزورها في مواعيد محددة لا تتغير. يجب أن أزورها إذن. تربعت هذه الفكرة في منتصف عقلي ومضيت خلفها شاردة أضع خططا وتوقعات مختلفة للقاء.

الحادي عشر

أنيس

صوت بوق سيارة مجنون ملأ الفضاء واحتكاك عجلات شديد على الإسفلت أخرجاني من شرود وأعاداني إلى اليقظة. كنت أتوسط الطريق وأمامي مباشرة سيارة بالكاد استطاعت التوقف. كانت ستدهسني حتما. أطل سائقها من النافذة وانهمر تقريعه "وين سارحة أختي، حل عينيك، يا ربي هالبلاد قداش اتعبّت بالمجانين!" لوهلة شعرت بالخجل فعبرت الطريق بسرعة وعبر ممر جانبي أكملت سيري لأجد نفسي أدلف إلى البيت. اغتسلت وارتديت ثوبا مريحا. تفقدت رقية في المطبخ وهي تضع اللمسات الأخيرة على العشاء. أخرجت صحوننا جميلة وكؤوسا من الكريستال، جهزت الطاولة وزينتها ثم ساعدت رقية في جلب القدور. تكفلت أنا بسكب الشربة والأرز، بينما غابت رقية في غرفتها لبعض الوقت. ثم عادت لتفتح الباب حيث قالت حين مرت بي لعله الأستاذ أبجد. صدقتها مباشرة إذ لم أكن في منتهى تركيزي تلك اللحظة. فتحت رقية الباب وأغلقته، لم تعد هي ولا جاء أبجد. لقد هربت. اللعنة عليها. ظللت انتظرها مع القادم وحين تأخرت ذهبت إلى الباب. كان مقفلا ولا أثر لها. هل تكون غادرت. لعلها خرجت في أمر طارئ بعد أن احتالت علي لعلها على

موعد مع أبجد أو لعلها تفطنت لمخططي. فليس من المنطق أن أحتفي بها فجأة دون أي مناسبة. أخيرا أثبتت ذكاءها، لم تكن ساذجة أبدا هذه الرقية الـ.. لا أعلم حتى لقبها العائلي ولا من أي قرية تنحدر. كيف سأجدها. ليس أمامي سوى سبيل واحد، تلك القصاصات المقتطعة من الصحف التي كان يقصها أبجد ويحتفظ بها عندي. ركضت إلى غرفة المؤونة فتحت جرة قديمة وأخرجت منها كيسا بلاستيكيا. بعد أن أفرغت المائدة من الصحون والطعام. رتبت القصاصات حسب تاريخها المثبت في ملصقة صغيرة من الخلف. عشرات من المقالات والتحقيقات والأخبار. كانت كلها تتحدث عن موضوع واحد: مقتل الحلاق أنيس الفضالي في مدينة غمسيس. والجاني لم يعرف بعد. لا أدري ما الذي جعلني أفكر أنني سأجد اسم رقية ضمن هذا الحشد من الأشخاص المذكورين. قرأت وقرأت ولم أيأس. ورقة صغيرة تضمنت خبرا صغيرا. شاهدة جديدة في قضية مقتل الحلاق. نتحفظ على ذكر اسمها تنحدر أصولها من قرية "مرابط الست" التي تبعد تسعة عشر كيلومترا عن غمسيس. شهادتها قد تقلب الموازين. قبضت على الورقة بجذل. حتما هي رقية المقصودة في هذا الخبر. سأبدأ بالبحث عنها إذن وأتبع كل الحلول الممكنة. لقد حسمت أمري. في صباح الغد تنكرت كعجوز متشردة. أخرجت العربة التي كنت خبأتها تحت السلم بعناية ووضعت فوقها كيسا كبيرا. خرجت إلى الشارع وقد طوعت حبالي الصوتية لصراخ خشن "خبز بايت، خبز بايت" لم يعرني سكان الشارع اهتماما، ولم أرَ حياة في شقة أبجد لكنني صممت على البقاء هناك لأراقب البيت. يمكنني الدخول إذا

شئت ولكن أظن رقية إذا كانت مختبئة هناك لن تخاطر وتترك المفتاح في مكانه السري، هذا إذا كان أخبرها أبجد عن مكانه. لكن يجب عليّ التأكد من الأمر. أعلم أن العمارة لا حارس لها لهذا ستكون مهمتي سهلة. اقتربت من المدخل ركنت العربة، وبخطوات واسعة صعدت الدرج إلى الطابق الأول. بهدوء اقتربت من المدخل، قلبت السجادة الصغيرة وبحثت في جيبها السري عن المفتاح. لم يكن هناك. إذن رقية اختارت حلا سهلا وأتت إلى أول مكان يمكن أن أعثر عليها فيه. لكن قبل أن أقبض عليها، هناك مشوار يجب أن أقوم به أولا. لقد كنت مطمئنة أن رقية لن تهرب مجددا. فلا مكان يأويها سوى شقة أبجد. غادرت العمارة ولم أتوقف عن ندائي طلبا لبقايا الخبز إلا بعد أن ابتعدت من ذلك الشارع. كان يجب ألا أترك أي نوع من الشكوك يترصدني مهما كان صغيرا.

كنت أعرف مكان حانوت أنيس الحلاق. قصدته حثيثا. دخلت محل البقالة المجاور له. وسألت صاحبه عن عنوان بيت أنيس. قصدت حي الميناء، قبالة محل الصائغ اليهودي فيلا فخمة من طابقين تتقدمها حديقة فاضت بالياسمين. إلى جوارها بيت يبدو قديما، بوابته تشي أنه دار عتيقة. اقتربت وطرقت الباب بالقبضة الحديدية المثبتة فيه. وألححت في الطرق. خطوات ثقيلة تناهى إلي صداها ثم فتح الباب. أطلت امرأة تبدو ستينية، حملقت في وجهي وهيأتي وسألت من الطارق. للحظة نسيت إنني متنكرة ثم ساعدني دهائي. قلت بثبات:

-رسول خاص إلى أم أنيس.

-رسول؟

-نعم من طرف الأستاذ أبجد الغايب.

-ادخلي إلى السقيفة، وانتظري، سأبلغها أولا

- نعم أنا في انتظارك.

جلست قليلا وحين ابتعدت عني تبعتها. كان هناك ساحة حوش تتوسط الدار قطعتها المرأة بتثاقل فوجدتني أمشي خلفها مباشرة. تركتها تسبقني حين دخلت إحدى الغرف. ثم لحقت بها. وقفت وسط الغرفة ابحث عن أم أنيس. فاذا هي عجوز هرمة مستلقية على سرير ومصل موصول الى وريدها. أحزنني حالها، فقدان الابن ليس هينا. هو وحيدها، كان أملها الدائم ومصدر فخرها بكل تأكيد. انكبت المرأة توقظها وقد فاجأها وقوفي بجانبها. نظرت لي نظرة عتاب. مظهرها يشي بكونها ابنة ريف، وطبعها الريفي منعها من طردي خارجا. أفاقت العجوز، ساعدتها المرأة على الجلوس. وبصوت واهن سألتني:

-ماذا تريدين أيتها الغريبة، نحن لا نأوي المشردين المعذرة. سأمنحك بعض المال صدقة على روح ولدي الغالي. تعالي.

سأستميت لأتحكم في الحديث، لا يجب أن ينتهي هكذا.

-لست مشردة، لي بيتي وعائلتي، أنا أرسلني أبجد الغايب!

-أين هو ذلك اللعين لم يزرني منذ وقت طويل؟

-منشغل ببعض الأمور. ويتابع تحقيقات قضية موت أنيس لا تقلقي.

-لماذا أرسلك إذن؟

-رقية!

-ما بها؟ أين هي؟

- قد تكون أحد المتورطين، يقول لك الأستاذ لا ترددي في إعطائي عنوانها أو إخباري بأي معلومة يمكن أن توصلنا إليها.

-مستحيل؟ أنا أعرف رقية لا...

-المال يجعل كل شيئا ممكنا، سرقت الكثير من أموال أنيس، خلال أيام قليلة سيأتي إليك الأستاذ أبجد ويروي لك كامل التفاصيل. رقية هي الأمل الأخير للوصول إلى القاتل الفعلي.

جمدت العجوز لدقائق بدت لي دهرا. ثم حملقت بوجهي حتى أربكتني. تبدو نظراتها ثاقبة رغم عمرها الموغل في السنين. أخيرا أشارت إلى درج قريب وقالت:

- في ذلك الدرج تجدين دفاتر عديدة، افتحي البني تجدين فيه ورقة فيها عنوان أهل رقية في قريتها "مرابط الست" تركته لي قبل مغادرتها في حال حدث لها أي مكروه.

رأيت العجوز تلهث تعبا فأشارت إلى رفيقتها لتساعدها على الاستلقاء بينما أنا فتحت الدرج واختلست الدفتر بما فيه خبأته في طيات ثيابي. ألقيت سلام وداع سريع، وغادرت قبل أن تنتبه

المرأة الستينية. عدت إلى الشارع حيث يسكن أبجد بينما الليل يكاد يرخي سدوله على كتفَيْ النهار.

الثاني عشر

شاي أسود

لدي شعور غامض بأن هذه المرأة رأيتها سابقا. أنا "رقية سنجول". منذ غادرت بيت أهلي حرصت ألا أثق في أية امرأة ما الذي جعلني أثق في هذه؟ حدث الأمر بسرعة البرق. يومها عاد أبجد إلى البيت على غير عادته ولا طبيعته. لم يسلم علي ولا مدح جمال أنفي ولا اعوجاج فمي، ترك ثقله ينزل على الكرسي الوحيد في المطبخ الصغير. أخبرني أنه مضطر للغياب ليومين، فلقد توفيت قريبته ومن واجبه الوقوف على مراسم الدفن. قدمت له واجب العزاء لكنه سحبني إلى الفراش. نهش لحمي كحيوان جارح بسرعة ثم أخذ حماما سريعا وخرج دون أن يقول كلمة واحدة. انكفأت على نفسي وأنا أستغرب خشونته تلك. لم يكن عنيفا أبدا ولا صموتا. قسمات وجهه المتناسقة الجميلة وشعره البني الذي لوحته مسحة شقراء تضفيان شعورا بالراحة على كل من يتواصل معه. أذكر يوم هربت إليه بعد حادثة مقتل حبيبي الحلاق، كان غاية في اللطف والود. حتى انه ساعدني لتجاوز الصدمة والعودة إلى الحياة بقوة. الأستاذ أبجد لم يكن مجرد رجل، بل هو أكبر من ذلك.

عاد بعد سويعات قليلة، وجلس ليحدثني في موضوع مهم. لا أدري كيف وافقت ولكن ها أنني الآن معينة في بيت السيدة نور. ماتت أمها من يومين، وما من أقارب أو جيران يمكنها الاعتماد عليهم. فعرض عليها خدماتي. كان يعرف حاجتي للمال لتأمين سفري بعد مقتل أنيس. التحقيقات لم تكشف القاتل، لهذا أجدني دائما مهددة لذلك وطنت عزمي على السفر خارج البلد بمساعدة الأستاذ أبجد. كما أن حاجة السيدة نور لمن يساعدها على شؤون البيت أيام العزاء وما بعده. كلما نادتني أو تكلمت بنبرة عالية معي أشعر أن نغمة صوتها ليست بغريبة عن ذاكرتي. بدأ جهاز الاستشعار بداخلي يعمل ويلتقط كل إشارة. حتما سأعرف من هي. تولى الأستاذ أبجد المهام الصعبة خارج البيت بينما أنا ركزت عنايتي ببيتها. شقة واسعة لا أدري كيف ستعيش فيها وحدها بعد رحيل أمها. مر أسبوع على حالة الوفاة. خلالها تفطنت لمتانة العلاقة بين السيدة نور والأستاذ أبجد، لم أتخيل مدى عمقها ولكنني توقعت أنها قريبة له مبجلة. وفي غفلة طلبت منه أن نعود إلى بيته فما من داع لنبقى أكثر عندها. وعدني بالعودة معه مساء. غير أن زائرا مجهولا قدم بلا موعد. دق الجرس ففتح له الأستاذ أبجد. ليجد نفسه في مواجهة رجل بدين أصلع يخفي وجهه بنظارات شمسية عريضة. لم ينبس ببنت شفة، فقط ألقى كيسا أسود في حضن الأستاذ واستدار مغادرا ويغيب في لمح البصر. تبعه الأستاذ فلم يعثر له على أثر. كأنه كائن من الهولوغرام وتبدد بلحظة. عاد الأستاذ أبجد مرتبكا، بعجالة حمل ملابسه القليلة وغادر مسرعا. حاولت اللحاق به لكنه صرخ بي بأن أبقى عند السيدة نور حتى يعود

لاصطحابي. ولم يعد. رغم ذلك بقيت في انتظاره، هو أملي الوحيد في النجاة والخروج من غمسيس. خاصة أن هذه المرأة بدأت تكشر عن أنيابها لا تفتأ تصرخ بي وتهينني كلما رأت أنني مقصرة في عملي وتهددني بعدم خلاصي. لا أدري هل ذلك ناجم عن غياب الأستاذ أبجد أم أن طبعها شرش منذ البداية وقد غطى عليه حدث وفاة أمها.

أرسلتني السيدة نور إلى الصيدلية هناك سأجد الصيدلاني لوحده وسيعطيني دواء أجلبه لها على الفور وأوصتني متوعدة بعدم فتحه أو قراءة النشرة الطبية المصاحبة له مما زرع الشك بداخلي. تعمدت الإبطاء في العودة. اتصلت بالأستاذ أولا، كالعادة هاتفه مغلق. ثم بتمعن قرأت النشرة الطبية وشكرت ربي لأنها وردت بالفرنسية والعربية معا. لمن ستسقي السيدة نور هذا الدواء. قلب من سيتوقف إذن؟ فكرت واتخذت حذري.

توددت إليها قليلا ولاطفتها ثم طلبت منها أن تمنحني جزءا من أجري، يا للغرابة، وافقت مباشرة دون نقاش. وجلبت لي مبلغا لا بأس به. قدمته لي وابتسامة ماكرة ترتسم على وجهها لم أكن لأخطئها أبدا. خبأته في حمالة صدري بحرص وقصدت المطبخ. طلبت مني تحضير أكل كنت قد أعربت لها سابقا أنه المفضل عندي. وتلك علامة ثانية إذا، لنتابع اللعبة إلى الآخر. شجعت نفسي. لا بد أن استمد قوة ما حتى أستطيع تحريك الخيوط بهدوء. السفر هو نجاتي الوحيدة، طاقتي الكامنة. سيطرت على قلقي وتوتري بالانغماس الكلي في الطبخ. جهزت طبقا ضخما من الأرز بثمار البحر وشوربة سمك لذيذة وسلطة. في الأثناء قامت

السيدة نور بتجهيز طاولة الأكل. شموع وأطباق مذهبة ملاعق وسكاكين من فضة وكؤوس كريستالية. لوهلة ظننت أنها على موعد مع رجل عاشق لكن استبعدت الأمر. تحليلي الذي استخلصته من الإشارات حولي وتصرفاتها الطارئة كلها تصب في خانة واحدة. تركت لها مهمة سكب الطعام وانسحبت ناحية غرفتي. فتحت الباب ولم أدخل بل أغلقته وعدت أدراجي. اختبأت قليلا خلف خزانة عند مدخل الممر وتلصصت عليها. رأيتها تسكب قطرات من الدواء في صحن طافح بالشوربة. ثم خبأت القارورة كأنها لم تفعل شيئا. ابتعدت ناحية غرفتي، فتحت الباب وأطبقته مجددا كأنني خرجت منها. صاحت عاليا تناديني "رقية رقية تعالي لنتعشى". "خبز بايت خبز بايت".. كانت متنكرة إذن.

-سيدة نور، أهذا العشاء لي؟

-طبعا.. وددت مكافأتك على ما بذلتِه من جهد لأيام طويلة.

- هذا واجبي طالما أتقاضى أجرا.

-يعلم الله كم استأنست بك، هيا تعالي.

وخصصت لي الجهة التي فيها الطبق الذي سكبت فيه الدواء، دواء يجعل القلب يتعب ويدخل في أزمة ثم يتوقف كأنها سكتة قلبية طبيعية حسب ما تم ذكره في النشرة. لماذا تريد قتلي والتخلص مني؟ طبعا السبب واضح: الأستاذ أبجد. لقد اكتشفت علاقتنا يوم رميت لها من النافذة كيس الخبز وعلبة الطعام رأفة بها. هكذا إذن، إلى محاولة قتل أوصلتنا الشفقة. قبل أن أجلس كليا أمامها إلى طاولة الطعام باغتها بالقول:

-الباب يقرع، سأفتح أولا.
-الباب؟ لا لم أسمع شيئا هيا اجلسي، يتهيأ لك ذلك.
-بلى سمعت طرقات ثلاث، ربما لم تسمعيها لأنك منغمسة في التفكير بأمر مهم.
أربكها كلامي، فاحمر وجهها، وارتعشت أصابع يدها حين أشارت لي بالذهاب وفتح الباب. نزعت عني قميص الطبخ، وعرجت بخفة إلى المطبخ حملت حقيبة يدي وحذائي. أسرعت إلى الباب أفتحه تسللت خارجا ونزلت الدرج بسرعة الريح ليتلقفني الشارع. ركضت مسافة لا بأس بها ثم توقفت لأتنفس وأنتعل حذائي، لأعاود الركض مرة أخرى حتى بلغت شقة الأستاذ أبجد. لديه مفتاح سري أعرف مخبأه، كان يضعه في جيب مخفي في زاوية السجادة الصغيرة أمام مدخل الشقة. قام بطلاء المفتاح بنفس لون السجادة حرصا على التمويه أكثر. ولم يكن الدائس على ذلك الموضع أن يكتشفه لأن مكانه بالزاوية العلوية اليسرى من النادر أن تطأه قدم، إذ يعمد الأستاذ إلى سحب السجادة جهة اليسار حتى لا تتوسط المدخل بالضبط. ولم أكن لأكتشف ذلك المفتاح أبدا لولا قيامي بنفض السجادة من الأتربة المتراكمة بسبب الرياح الرملية التي تجتاح مدينة غمسيس بين الفينة والأخرى. الصدفة جعلتها تقع جرّاء النفض المستمر. أعدتها مكانها دون أن أخبر الأستاذ. أظن أنه سيحتاط مني ويفكر بأنني أدبر له شرا. فتحت الباب ودلفت إلى الداخل. حرصت ألا أشعل النور واستعنت بإنارة هاتفي الصغير. استقبلتني رائحة كريهة لا تُحتمل. تتبعتها إلى الداخل فعثرت على القط غوست ميتا، وسكين مغروسة ببطنه. أفزعني المشهد،

أسرعت أكتم صراخي حتى لا يسمعني أحد من الجيران. تحاملت على نفسي. لملمت جثة القط وضعتها في أكياس كثيرة وأغلقت عليها حاوية المطبخ. سأرميها عند الصباح. دخلت غرفة الأستاذ أبجد أخذت إحدى قوارير عطره الفخمة ورششت الشقة حتى ذابت الرائحة الكريهة. من خلال الغبار المتراكم وحوض المطبخ المليء بالمواعين التي تيبست بداخلها بقايا الطعام وسرير الأستاذ المرتب، خمنت أنه لم يعد إلى الشقة منذ أيام. أين عساه ذهب؟ أم أنه انخرط في احدى محاولاته للسفر خلسة مع أحد المهربين؟ أبعدت خيالاتي وأفكاري المتلاطمة، وطفقت أغير ملابسي ثم غسلت وجهي لأبعد شبح الخوف عني متفادية إحداث أية ضجة تشي بوجودي. إحساسي بالخطر لا يفتأ يتضخم بداخلي حتى أصبح كالجرس العظيم يحتل رأسي مما أجبرني على تناول قرص مهدئ، واستلقيت استجدي النوم حتى سقطت في كيسه المظلم.

أراني أمشي بخطى مترددة في ممر شقة السيدة نور. أفتح أبواب الغرف والخوف يكاد يصرعني. وصلت إلى الغرفة المخصصة فتحتها بحذر. اندلق مواء حاد في أذني، عشرات من القطط الغاضبة تموء في وجهي، شعرت لوهلة بالصداع. أمسكت رأسي وتقدمت داخل الغرفة فإذا هي نسخ مهولة العدد من القط غوست تهجم علي، تعضني وتخمشني بلا شفقة. ولم تتوقف إلا عندما تصاعد صوت جهوري مناديا "خبز بايت، خبز بايت" فتفرقت القطط وتلاشت في الحيطان. فتحت عيني لأتأكد من مغادرة القطط، فإذا بي أنام في فراش الأستاذ أبجد وتحت

نافذة الغرفة تعالى صوت نور متوعدا "خبز بايت، خبز بايت" هزتني رعدة رعب للحظة. سحبت الغطاء وجمدت مكاني ووضعت أصابعي على أذني. لن أجعلها تعرف أنني هنا أصلا. أتوقع أنها لن تستسلم وستظل تراقب المكان. تثاقل الوقت وتباطأت عقارب الساعة مشيرة إلى منتصف النهار. لا الأستاذ أبجد عاد ولا أنا برحت مكاني. تحررت قليلا من قيد الخوف. غادرت الفراش، وقفت خلف النافذة، فتحت الزجاج واختلست النظر من بين شقوق اللوح. منذ وقت لم أسمع صوت نور. لعلها تعبت، لعلها يئست من ظهوري، لعلها اختبأت في احدى الزوايا للمراقبة. تصرفات نور الجدية تفوق مجرد احتمالات يفكر فيها عقلي البسيط. هي حتما لن تغادر ستظل تراقبني حتى يضطرني الخروج وتهزمني الحاجة. سأصمد ولن أستسلم أبدا. قرصني الجوع، بحثت عن طعام معلب في خزائن المطبخ. دأب الأستاذ أبجد على شراء علب المصبرات كلما ذهب للتسوق. كنت استغرب منه ذلك لأنه لا يستهلكها أبدا إضافة إلى أنني في كثير من المرات أصب جهدا كاملا في إعداد وجبات متنوعة وشهية، رغم ذلك لم يكن يمد يده إلى أي منها. كان ينسحب ليغرق في قراءة الصحف والكتب بينما أنا أتأمله وفضولي يتساءل أين وماذا يأكل هذا الرجل؟

التهمت علبتي سردين وقطعتين من الكيك المغلف. أشعلت الغاز وأعددت كوبا كبيرا من الشاي الأسود، ثم قصدت الصالون حيث تحتل رفوف مليئة بعشرات الكتب معظم مساحات حوائطها. تجولت بين الكتب أريد اختيار أحدها، كان

معظمها في السياسة والتاريخ والفلسفة والأدب. السنوات القليلة التي قضيتها صحبة أم أنيس تعلمت فيها أن أتهجى عناوين الكتب، ثم أفك غوامضها حتى فهمت مضامينها وبدأ يتشكل لدي نوع من الوعي. أغرمت بالقراءة وكتبت مراجعات كتب كثيرة نشرتها في بعض الصحف تحت اسم مستعار. نيتشه، الطيب صالح، ساراماغو، كونديرا، هيمنغواي. الخ. كانت أوقاتا رائعة برفقة هؤلاء. جلب انتباهي كتاب مجلد لم أكن رأيته من قبل. كان مخبأ خلف صف من الكتب الدينية. ذكاء الأستاذ أبجد لا ينتهي. لن يميل أحد من أصدقائه اليساريين إلى قراءة هذه الكتب، لهذا خبأ خلفها كتاب قديم. لعله كنز أثري لا يقدر بمال. أمسكت به قلبته يمنة فيسرة. دفتين من الجلد الثمين حفرت عليه الحروف ونقشت بلون مُذهّب: "الجفر، نوستراداموس". لم أسمع من قبل بهكذا كتاب. بدا لي عنوانه غريبا وكاتبه أغرب. حثني الفضول على تصفحه. قرأت بعض الأسطر من الصفحات الأولى، إذا هو كتاب عرافة، يسرد توقعات نوسترادموس بخصوص العالم ومصير بعض الشخصيات البارزة وأحداث ستحصل في المستقبل. أيقرأ الأستاذ أبجد هكذا كتب؟ أعلم أن هكذا توافه لا تجلب انتباهه، لكنه جلب انتباهي ومضيت أقلب الصفحات، عند المنتصف رفضت الأوراق الانصياع كانت ملتصقة. شددتها بإصرار فتمزقت الورقات العليا، ما تحتها لم يكن سوى غطاء علبة بمزلاج صغير. بدا الأمر كأحجية. حركت المزلاج وفتحت العلبة. كانت مليئة بالقصاصات الصغيرة مطوية بعناية. زاد

التشويق واندفع الأدرينالين في دمي، أحسست أنني أركض داخل متاهة. جلست على الكنبة وتفرغت تماما لقراءة القصاصات.

-اقرأ جيدا المقالات المرافقة. أريد تحليلا عميقا لِما يقوم به الخصوم وخطواتهم القادمة، لا بد أن نسبقهم.. م

-في بحر القديسة 14 نلتقي زوالا.. م

-حرب الكلاب انتهب، وبدأت حرب الذئاب. مقال الصفحة الرابعة.. م

-ستصلك الأكياس تباعا، لا تضجر من الحمولة الزائدة، واجب التذكير علينا طالما توقف التنفيذ... م

- م... بيت المراكب

ح... حمولة اربع عجلات سوداء

ا... واقفا

س... أربعة فصول

ن... حيث بعد الوقوف يبدأ لا تُشْركه... م

بدت كل القصاصات أوامر سرية موجهة للسيد أبجد. وكلها موقعة بحرف الميم وكتبت بنفس الخط ما يعني أنها مرسلة من نفس المصدر. توقفت عند القصاصة الأخيرة. ركزت فيها. لغز لغوي تحمست لفكه. الأمر يتطلب بعض الذكاء فقط. سيكون تمرين لتنشيط العقل، لكأنني أربط بين الكلمات، استخلصت المطلوب باستنتاجات صغيرة "أما بيت المراكب فهو الميناء، وأما حمولة أربع عجلات سوداء فهي سيارة سوداء اللون، والألف واقفا تعني لا تتحرك من مكانك، وحرف السين وأربعة فصول فهي إشارة إلى الساعة الرابعة، والنون حيث بعد الوقوف يبدأ

لا تشركه، جملة يقصد بها بكل تأكيد أنيس، فبعد الألف الواقف هناك نون، والمقصود لا تخبر أنيس، أليس أنيس الذي نعرفه أنا والأستاذ وحتى السيدة نور هو الحلاق المغدور؟ يا لهذه الصدف المتكررة. متى يُنسى أنيس لأرتاح. تعبت من القلق والتخفي. لا أدري ما الذي دفعني لجمع الحروف المتفرقة بداية كل سطر. لقد اجتمع لدي اسم محاسن. امرأة إذن؟ أيكون هذا حقيقيا، نعم طبعا ويدعم ذلك توقيع القصاصات كلها بحرف الميم. يا ترى من تكون محاسن هذه. طبيعة محتوى هذه الورقات الصغيرة تشي بكونها إما زعيمة عصابة أو مديرة داخل الاستخبارات، أو شريرة منفردة أمسكت على الأستاذ أبجد مستمسك وتحاول استغلاله. لا أدري هل علي بعد الوثوق به كثيرا أم أن أحتاط وأغادر شقته. حسب هذه المعطيات ليس هناك من مأمن أبدا لي يجب علي العودة إلى دار الخالة خيرية والدة أنيس والاختباء هناك. بينما أفكاري تطوح بي هنا وهناك عسى أن أجد طريق نجاة، سمعت ثلاث تكات متتالية خافتة، أحدهم يفتح باب الشقة. قفزت خلف الكنبة الخوف جعل قلبي يتقافز مع كل نبضة. استرقت النظر، كان الأستاذ أبجد يدفع دفة الباب بهدوء، ليدخل بطيئا على رؤوس أصابعه. بدا كلص متسلل. ما الذي دهاه. انتصبت أمامه من خلف الكنبة فأجفل وتراجع خطوات إلى الوراء. أشرت بيدي أن اهدأ ولا تتكلم. سحبته بقربي عانقته طويلا ثم أجلسني أمامه. بحر من الأسئلة يريد سكبها فوقي لكنني بإشارة طلبت منه ورقة وقلما، وكتبت "يجب أن أغادر هذا المكان بأية طريقة، السيدة نور ترصدني!" أومأ لي موافقا. ثم قام واختفى في غرفته، ليعود بعدها يحمل

ثيابا رجالية وأشياء كثيرة. أمرني بارتداء الثياب. بعدها أتى بمقص وقص شعري ووضع فوقه شعرا آخر مستعارا ركبه بحرص، ثم ألصق شاربا غليظا فوق شفتي العليا، ولحية خفيفة على فكيّ، وأكمل عملية التنكر بنظارات مستديرة. نظرت الى نفسي في المرآة فلم أتعرف إلي. يبقى التحول انتصارا مهما كان صناعيا. طلب مني الأستاذ أبجد أن أنتظره ريثما يأخذ بعض الأشياء من المكتبة. رأيته يقلب الكتب كأنه يبحث عن المجلد. جمعت القصاصات وأعدتها إلى قلب الكتاب ثم قدمته إليه. رمقني بنظرات استغراب وعتاب في نفس الوقت. أخفى الكتاب في حقيبة ظهره إضافة إلى مغلفات كثيرة أخرجها من أحد الأدراج. ارتدى قبعته ونظاراته السوداء. دفعني إلى الخروج، وحمل حقيبته.

خرجنا بخطوات سريعة. كان الشارع خاليا، تساءلت أين اختفت نور المتنكرة؟ هل تراقبنا من ثقب بعيد يا ترى؟ مهما حاولت لن تتعرف إلي. استدرنا مع أول زقاق.

هناك ،كانت سيارة أجرة تنتظر. يبدو أن الأستاذ أبجد قد قدم على متنها. ركبنا على عجل، وانطلقت السيارة مخلفة أمواجا من الغبار.

الثالث عشر

أيال

لم أر يهودا من قبل، أعلم أن مدينة غمسيس يعيش فيها الكثير من اليهود، لكن أطوار حياتي لم تسمح لي بالتجول بحرية في المدينة ومشاهدتهم ولو من بعيد. إذ أمضيت معظم الوقت مختبئة أخدم الخالة خيرية، وحين كان أنيس يأتي لاصطحابي يكون ذلك في سيارته ذات البلور القاتم، من بيت والدته إلى السيارة ومن السيارة إلى بيته أو الفندق. كانت والدته تظن أنني أرافقه للاعتناء ببيته فهو أعزب لم يتزوج بعد. أعرف أن جيران خالتي خيرية يهود لهم مصاغة في نفس الشارع حيث يسكنون بحي الميناء.

ولم تخامرني للحظة فكرة أنني يمكن أن أكون قريبة منهم بهذا القرب الشديد. ها أنني إذن عند عائلة يهودية. الأمر لا يمكن تصديقه صحيح. كيف لعائلة من اليهود أن تستقبل في عقر دارها امرأة مسلمة؟ هناك غرابة تكتنف الموضوع. كلنا نعلم الصراع التاريخي والديني والسياسي، فهل تم نسيان ذلك كله ببساطة كمن يفرغ دلو ماء في البحر؟ طبعا لا لم يحدث ذلك أبدا، لكن هناك في المنتصف سحر لا يُقاوم للأستاذ أبجد على هذه العائلة، واحترام لا متناه يثير الاستغراب. هذا الصائغ العم

أيال استقبلني برحابة صدر وبشاشة رغم توجس زوجته أديرا وابنته الجميلة أوريت، فهما إلى الآن لم تطمئنا لي ولم تركنا رغم ودهما. ولقد خصصوا غرفة بعيدة عن غرفهم من أجل راحتي وراحتهم وإمعانا في إخفائي. كلام الأستاذ أبجد صارم وصريح يقضي بعدم خروجي مهما كان السبب، حيث علي طلب أي شيء من عائلة العم أيال دون حرج. ما أثار عجبي أن هذه العائلة لم تسألني أي سؤال فضولي. منحوني مساحة كبيرة لأكون وحيدة، وحرصوا على أن يجلبوا لي مجموعة كبيرة من الكتب. فلم أجد إشكالا في الاختلاط بل حمدت صنيعهم كثيرا. طرق العم أيال باب غرفتي واستأذن للدخول. وقف قريبا من الباب، جاء يدعوني لأشاركهم الطعام على نفس المائدة. انكفائي على نفسي واحترامي لخصوصيتهم كعائلة و ثقافيا ودينيا بعد محادثات قصيرة مع ابنتهم أوريت جعلهم يطمئنون أكثر لي. مرات كثيرة رفضت الأكل، في البداية كانوا يظنون أن مرد ذلك بسبب كونهم يهود وأنا مسلمة وحزنوا للأمر لكن بعد توضيح نظرتي لهم وأنني سئمت الأكل وحيدة ربما جعلهم يفكرون في ضمي لمائدتهم هذه المرة. لم أرفض بل وافقت مباشرة ركنت الكتاب الذي كنت أقرؤه وتذكرت جدتي وحكمتها التي تقول " كول طعام اليهودي فهو حلال". قطع سؤال العم أيال عن الكتاب ذكرى جدتي. قرأ العنوان:

-الثورة المجيدة! أنا أيضا لدي حديث عن الثورة.

-إلى الآن لا ندري هل هي ثورة أم فوضى.

-نعم وفي الحكاية أقوال كثيرة. هيا إلى العشاء.

عاملتني زوجته وابنته بود أكثر، وشجعتاني على الأكل. حين انتهينا من العشاء رغبت في مد يد المساعدة وحمل الأطباق الى المطبخ لكن السيدة أديرا رفضت بتصميم. لوهلة شعرت أن الجو صار مشحونا. ربت العم أيال على كتفي وسحبني إلى مكتبه بعد أن طلب من زوجته شايا. مكتب فسيح حيطانه غطتها رفوف الكتب. كم وددت لو تجولت بينها. كان الأحب إلى نفسي التواجد بين الكتب وتصفحها ومعانقة أوراقها والسفر مع إيقاع حفيفها. ساحر عالم الكتب يأخذك إلى أقاصي المنطق والجنون ويجول بك عبر خارطة غير تلك المرتسمة بالحدود. كبَحتُ فضولي وبصري الذي وقع على الشمعدان الفضي بشموعه الأنيقة الثمانية، ونجمة داود متألقة على محمل مذهب. ابتسم الصائغ أيال وهو يدعوني للجلوس. تنحنح وبادرني بالقول:

-أراك منهمكة دائما تقرئين، من الجيد أن السيد أبجد نبهني أنك تقرئين. اخترت لك الكتب عشوائيا، إذا احتجت شيئا أخبريني لدي قسم كبير من الأدب العربي والمحلي.

-شكرا عمي أيال، وشكرا للأستاذ أبجد لا يترك شيئا للصدف، ولا ينسى أبدا.

-نعم هو شخص استثنائي، أتصور أنت تتساءلين طوال الوقت، كيف نحن اليهود سمحنا لك بالمكوث معنا؟

-بصراحة نعم، وأسئلة كثيرة أخرى.

-دعيني أحكي لك هذه الحكاية إذن يا صاحبة الأنف الجميل.

قاطعتنا ابنته أوريت، أتت حاملة شايا وأنواعا من الحلوى، وضعت الطبق وانسحبت دون أي كلام منها. خمنت أن العم أيال

قد تحدث معهم قبل دعوتي للعشاء ليضمن جلسة دون منغصات. عدنا للحديث عن الكتب وشغف القراءة. أخبرني أنه ينحدر من عائلة كل أفرادها يقرؤون بنهم، وقد قرأ لأشهر الكتاب العالميين. يسحره بول أوستر وخورخي لويس بورخيس، سيرفانتس وبوشكين، هؤلاء أصدقاء رافقوه بكتبهم وساهموا في صنع شخصيته، وكان يحب سيلفيا بلاث لكن يحزنه دوما انتحارها، لهذا لا ينصح النساء بالدخول في عوالم الكتابة المخيفة. الكتابة إهراق للروح والدم قبل الحبر، لهذا يموت أعظم الكتاب مبكرا إما مرضا أو انتحارا. كنت أود إخباره أنني أفكر فعلا في ولوج عالم الكتابة ثم عدلت عن ذلك، خفت أن يثبطني عن ذلك. فسكت وتلهيت بقضم الحلوى وشرب الشاي. ثم وجدته يقص على مسامعي ما أسماه بحديث الثورة.

دعيني أعرج بك إلى البدايات، حيث أن معرفتي بالأستاذ أبجد لم تكن وليدة موقف واحد. كنت أعرفه زبونا وفيا لمحل الصياغة الذي أملكه. كان يقتني ما يحتاجه هو وأصدقاؤه دائما من عندي. عرفته صاحب ذوق رفيع، عينه العميقة لا تخطئ النوادر. في المرات الأولى التي جاء فيها يقتني سلاسل ذهبية، جذبني مظهره. لم تكن ملامحه كباقي سكان غمسيس. ودخلت مع ابنتي وزوجتي في رهان حول أصوله. البنت افترضت أنه من العاصمة، وأمها قالت أنه أوروبي مستشرق، بينما أنا افترضت أنه من هنا، من عمق هذه المدينة العنيدة التي تكشر كل صباح للبحر وتبتسم للمغيب. مع مرور الوقت أصبحنا نتبادل أطراف الحديث لنتفق على شغفنا المشترك بالأدب والسياسة. كان يأتي

في فترات متباعدة حيث أنه مضطر للبقاء في العاصمة باعتبارها مركز النشاط، ويأتي هاربا منها حين تضيّق عليه الخناق. ما يعجبني فيه وفاؤه الدائم لهذه المدينة. إذا حدث وبقي هناك كثيرا لن يصمد أكثر من ثلاثة شهور، ويعود لاعناً كل المغريات التي أنسته غمسيس كل هذا الوقت الطويل. قبل الثورة بأشهر، عاد متعكر المزاج. أخبرني ساخرا أن حبيبته السابقة ترغب في قتله بعد أن تركها إثر خصام بسبب تفطنها لحبيبته الثانية المتواجدة بغمسيس. أذكر جملته التي جعلتني لا أتوقف عن الضحك لأيام، "صاحبتي الثانية تعشعشني باش تذبحني صاحبتي الأولى". وقتها اختفى فجأة حين أخبرته أن بعض الرجال قد جاؤوني إلى المحل يسألون عنه وعن عنوانه هنا، ليعود بالظهور مع اندلاع أحداث الثورة بعد أن انتشرت في كل مدن البلاد. غمسيس ثارت، غمسيس استيقظ فقراؤها الجوعى وثاروا بسبب التهميش و"الحقرة"، لكن شرذمة منهم دفعه الحقد الاجتماعي إلى الانتقام من الأثرياء وأولهم عائلات التجار اليهود. ولولا ظهور الأستاذ أبجد الذي قلب كل الموازين، حيث سيطر بطريقة ساحرة على كل الناس، فكون لجانا شعبية توزعت بين الأحياء حمت الناس والأرزاق. لولاه لما نجا مَحليّ ولا سلمتْ عائلتي، إذ أشرف بنفسه على نقل كل المصوغ من الذهب والفضة والألماس صحبة ابنتي وزوجتي إلى شقته التي ظللنا فيها عدة أيام وليال، لا نفعل شيئا سوى متابعة ما يحدث في الخارج بقلق. الغضب والجوع يصنعان من الإنسان وحشا لا يحمل ذرة عقل. والقلقُ سُمٌّ يفتك بك دون أن تدري.

ثم واصل كلامه قائلا: طالما أن الأستاذ أبجد طلب أن تبقي عندنا فذلك يعني أنه يثق بنا ويعتبرنا أصدقاء فعلا، وأنك عزيزة عليه فعلا. أنا لا أقصد أن تخبريني بنوع علاقتك به. ما وددت قوله أن الأستاذ أبجد لا يدع أيّ أحد يتوغل في حياته إلا إذا كسب ثقته. كان رهانه الفكر لا المصلحة.

ضحك العم أيال قليلا وأضاف:

- لكن في مسألة النساء ربما توجد استثناءات. أعرفه جيدا هو نزق لكنه لا يبقى طويلا دون امرأة، حتى أن النساء يعجبهن هذا كما يبدو.

كان العم أيال يحدثني ويمازحني. الحديث معه فرصة حقيقة فقد قادني إلى زوايا جديدة لم تخطر ببالي في عدة مواضيع وقضايا راهنة. ما فاجأني أنه لم يسألني أبدا عن حياتي ولا تطرق إلى قضية مقتل أنيس. ومع إشارة الساعة إلى الحادية عشر ليلا، قام من مجلسه توجه إلى أحد الرفوف سحب مجموعة من الكتب قدمها لي. كتب تنوعت بين المسرح والشعر والرواية والقصة للكاتبين حكمت الحاج وعواطف محجوب. أدهشني اطلاعه رغم أنني لم أكن لأستغرب أن يكون على معرفة بهما. أنقذني العم أيال من فخ الاحتمالات حين قال لي "أحب فلسفة الأصوات والظلال، الكتب دائما تنادينا".
حملت الكتب بينما جملته الأخيرة جعلتني أفكر في ماهية الخطوة القادمة، لقد بدا طريقي شائكا غامضا، ولم أعرف ماذا أفعل. ليلتها نمت عميقا بعد أن قررت أن أكتب.

الرابع عشر

الرواية

ما أعلمه الآن أنني سأكتب رواية، وهي السبيل الوحيد الذي أقدر عبره أن أتكلم دون رقابة. لقد ملَّ لساني ذلك الشرطي المتأهب له كلما حاول قول شيء ما بصوت مسموع، رغم أن يقيني أن الصوت قد يكون أحيانا سرابا أو صدى لدرفتي شباك تلاعبهما الريح. وأنا أحتاج اصطداما بين صوتي وشيء صلب حتى يصبح حقيقة. ولم يكن أمامي أفضل من قلعة الكتابة. بعد تفكير طويل توصلت إلى معادلة عادلة، في صمتي نجاتي، وفي الكتابة سلامة عقلي. لم تكن الشهرة مطلبي أبدا ولا المجد، كنت أريد أن أنقذني فقط. بدأت بكتابة يومياتي حتى ملأت دفترا، في عيد ميلادي العشرين، ومن بين هدايا أنيس كان هذا الدفتر البني الجميل. أغراني فعلا بكتابة رواية، لكن قبل البدء فيها قررت كتابة هذه المقدمة التي ستعيدني إلى الفترة المريرة التي مات فيها أنيس. غريب أمر الموت، وجعه القاتل يجعلنا نتقيأ جمالا من نوع خاص، لكنني قررت أن لا أكتب أي شيء عني وعنه وعنهم. أولئك الذين وجدتهم بلا موعد في حياتي وكلهم لهم غاية واحدة هي التخلص مني. لم أتصور أنني أمتلك فاعلية الحركة

داخل قصة لم تكن لتعنيني بشيء لولا موت أنيس. لن أكتب شيئا مهما حاول قلمي وعصتني الشخصيات.

تخيلوا معي أننا نعيش في القرن القادم. أبهذه الفكرة سأبدأ مشواري؟ لا تملّوني فقط!

تأففتْ نور وأغلقتْ الدفتر. شتمت رقية بأقذع السباب وسخرت من فكرة أن تصبح روائية. كلام الريفيين لا يصبح رواية أبدا، خاصة وأن رقية الساذجة الجاهلة هذه لم تصل المرحلة الثانوية فكيف يمكنها التحكم في شبكة من الأحداث والشخصيات؟ الجميل الوحيد الذي صنعته لي أنها أخبرتني بطريقة ما أنها كانت خليلة أنيس. بضاعة مشتركة بينه وبين أبجد. يجب أن يموتا كما مات أنيس. لا أحد يسخر من نور. حتى محاسن التي تقتفي أثره عبر رجالها أخمن الآن أنه كان يطارحها الغرام ثم هجرها، وليس كما أوهمني أنه كان لهما نشاط سياسي مشترك. كيد أبجد فاق كيد رقية. أنا محاطة بالأوغاد إذن. يجب تنظيف الساحة منهم. منزلتهم منزلة الثعالب أمام الذئاب. استعرتْ نار الحقد في دماء نور وقررت أنها لن ترتاح إلا بالانتقام منهما. ستبدأ بالبحث عنهما أولا ثم تقرر كيفية القصاص. بلا اهتمام عاودت تصفح الدفتر في جزء متقدم منه، فلاحظت أن الخط المكتوب تغير وأصبح أكثر أناقة ونظاما. وَجَفَ قلبُها. شحذت انتباهها. وبسرعة رجعت إلى موضع تغيّر الخطّ. قرأت آخر ما كُتب بخط رقية. كان فعلا يصب في الموضوع الذي اقترحته. الحياة في المستقبل وعبور قرن من الزمن. ليتوقف فجأة مع ملاحظة ميزتها نجمة "المعذرة رقية احتجت أن اكتب

هنا لعدة أسباب، ستفهمين لاحقا، احرصي ألا يقرأ أحد غيرك هذا"، ثم بدأ الجزء الطارئ على رواية رقية، قرأته نور بنهم. وأجزمتْ أن رقية لم تقرأ ما كتبه أنيس وإلا لكانت الأمور قد سارت على شكل مغاير. كيف نجا أبجد من الموت المترصد به طوال الوقت ومات عوضا عنه أنيس؟ لماذا لم يخطر ببال الشرطة تفتيش بيت أمه؟ بسرعة صورت نور الصفحات بهاتف لا تستعمله إلا نادرا ولم تكن تحمله معها إلى الخارج، ثم أشعلت نار الفرن التقليدي، "الطابونة، أو التنور، بلغة أهل المشرق"، والذي يعمل بالغاز، وأحرقت الدفتر. لن تقبل بأن تكون محل تتبع وتحقيقات هي في غنى عنها. وعن قناعة عدلتْ عن قرارها بقتل أبجد ورقية. لن تعرفهما في قادم أيامها فحسب. بل ستطلب من أخوتها أن يرسلوا لها تذكرة طائرة وتلحق بهم إلى فرنسا، لتعيش مجددا هناك. فبطاقة إقامتها لا تزال سارية المفعول بفضل طليقها الذي أبقى عليها بطيب خاطر. شكرت فيه مروءته، ولعنت أبجد المندفع المجنون.

الخامس عشر

الاختطاف

حين انزاح خوفها، وعاد عقلها لعهده يزن الأمور ويربط بين الخيوط ويحلل الأحداث، قررت أنها لن تقطع علاقتها بأبجد، ولن تنسى رقية إلا بعد أن تعرف أسرار الحكاية كلها. وستسمعها منهما حيث تجعلهما وبطريقتها يرويان ما حدث. يجب عليها أن تكمل من حيث توقفت. أولا ستجد رقية، ستهددها أو تغريها بالمال، المهم أن تسرد على مسامعها الحكاية كلها. يجب عليها أن تعرف موقعها من القضية. قد تكون متورطة فيها وهي لا تعلم. لم يطالها التحقيق أو التهديد فقط بسبب الوقت. أي لم يحن وقتها بعد. أبجد الداهية صاحب الجانب المظلم. تذكر أنها في خصوماتها معه تتهمه بالسرية والغموض. ثم سريعا تعود وتنسى ذلك بسبب سحره الذي لا يمكنها أن تقاومه مهما فعلت.

لم تتنكر ولم تدفع العربة أمامها. ستذهب بوجهها المكشوف. الآن هي في حاجة للحقيقة والأشياء الحقيقية. هي تحتاج أن تعرف على أي أرضية تدوس. تخيفها جدا فرضية أنها داخل لعبة شطرنج على بساط متحرك، وتسقط إثر مخاتلة غامضة.

وصلت أمام مدخل شقة أبجد. دقت الجرس مباشرة دون تردد. انتظرت لوقت وما من أحد قادم ليفتح لها الباب. عاودت الكرة لكن لم يجب أحد. هل من المعقول أن شخصا هاربا سيفتح الباب تلقائيا بمجرد أن يرن جرس الباب، فكرت نور ثم جاوبت نفسها جازمة أن ذلك قطعا لا يحدث، ولا يفعلها إلا من وصل إلى طريق مسدود وليس أمامه سوى الانتحار. وعدلت بذلك عن الاستمرار في الضغط على زر الجرس. وانحنت على مفرش المدخل تتفقده، فاذا بالمفتاح مستقر هناك، أدخلته في القفل وفتحت الباب بهدوء ثم دخلت بخطوات بطيئة لا تصدر صوتا. وقفت في البهو تتأمل المكتبة والكنبات في الطرف المقابل. بدا كل شيء مرتبا ونظيفا. حتما رقية قامت بكل ذلك. فهي ليس لها من معارف سوى الطبخ والتنظيف، حمقاء ساذجة. سقطت أفكارها فجأة في هوة سوداء حين سُدّ أنفها فجأة وقُيّدت أطرافها بقبضات قوية لتغيب عن الوعي.

تململت في مكانها بصعوبة، تأوهت وهي تحاول تحريك أطرافها المقيدة إلى الخلف. بينما بصرها يلاعبها بتقريب وإبعاد الحيطان المتمططة حولها حتى استقرت. التفتت يمنة فيسرة. الشقة هي شقة أبجد. والجالسان بقربها لا تعرفهما. رجلان ضخمان يرتديان نفس اللباس. بدلة سوداء فخمة وربطة عنق رمادية تميل الى البياض، وأحذية جلدية بعنق يصل الى الكعبين. ملامحهما قاسية، شفاههما غليظة متبرمة بتكشيرة عريضة وعيونهما بنية غامضة والأنوف طويلة والجباه ضيقة والرؤوس حليقة عن آخرها. تفطنا إليها تراقبهما. قفز نحوها أحدهما،

بينما غاب الثاني باتجاه غرفة أبجد، سرعان ما عاد ترافقه سيدة بدت خمسينية أو أقل بقليل. هيأتها تشي برفاهيتها، شعرها مصفف صبغته بلون العسل، وجهه يبدو طبيعيا عدا تلك الطبقة الخفيفة من مساحيق التجميل. بدلتها أنيقة فوقها ارتدت معطفا خفيفا، وانتعلت حذاء ستيلتو. تبدو سيدة أعمال، ما الذي تريده منها هذه المرأة الغريبة. فطنة نور جعلتها تفكر أنها إحدى عاشقات أبجد. تبدو امرأة قوية وأبجد يكره المتسلطات المتحكمات. أعلم أنه يميل إلى النساء الناجحات المتعلمات المحافظات على ضعفهن الأنثوي الفطري، أما هذه فصرامة ملامحها بأنفها الطويل تكشف خليطا من العجرفة والنرجسية. نكزتها المرأة بكعبها الحاد بفخذها متوعدة:

-ووقحة أيضا، تحملقين بي كأنك لا تعرفينني، نور، منذ زمن لم نلتقي، اليوم دورك!

-دوري؟ أنا لا أعرفك أيتها السيدة، أظن أنك أخطأت الشخص. أجابتها نور بنبرة مرتبكة يغلبها الرجاء.

- جاحدة وكاذبة، سترين ما أفعله بك أيتها الساقطة!

قهقهت المرأة عاليا، اقتربت من نور المقيدة وصفعتها بقوة، ما جعل الأخيرة تشعر كأن دماغها تناثر أشلاء في دوامة هواء. جلست المرأة أمامها مباشرة، حدقت في عينيها مباشرة وقالت بثقة صارمة:

-أنا محاسن، لا تجرئين على إنكار جهلك بي ثانية.

أنكرت نور معرفتها بها بصوت مرتعش:

-لكنني لا أعرفك فعلا منذ تخرجت من الجامعة عدت إلى غمسيس ولم أخرج منها إلا إلى باريس في فترات متباعدة.

-لا عليك، ستتذكرين كل شيء، ماذا لدي سوى الصبر. أرجو ألا تنكري علاقتك بأبجد أيضا، وقتها سأطلق عليك رصاصة بلا رحمة.

-أبـ. أبـ. أبجد خطيبي السابق.

-خطيبك! وقهقهت محاسن عاليا، أنت لست سوى عاهرته. وأكملت للضحك: يروقني أن نجلس هنا طويلا ونتبادل الحكايا. ما رأيك؟ كلما تعاونت، كلما كنت رحيمة بك.

لم تحر نور جوابا، بل صمتت صاغرة وهي تلعن في سرها أبجد وتتمنى الموت لقحابه كلهن.

أشارت محاسن إلى أحد رجالها، غاب في المطبخ ثم عاد يحمل كوبا من القهوة. ملأت رائحة البن المكان، فتحفزت ذاكرة نور. في أول عيد ميلاد احتفلت به مع أبجد أهداها قلادة من الذهب وعلبة فخمة من "بُنّ العميد"، ذاك البن الذي كانت قد تذوقته معه في أول لقاء لهما بشقته في العاصمة. مع كل رشفة وضعت حجر أساس لحياة مستقرة يملؤها الحب والعشق. اللعنة عليك يا أبجد قلبت حياتي سقفا على عقب، حتى وأنت تهجرني أدفع الثمن الآن أنا.

زعيق محاسن الجالسة أمامها بفخامة الأميرات أعادها إلى حاضرها الراهن وهي رهينة عند أناس لا تعرفهم.

-كوني طيعة واحكي لي عن علاقتك بأبجد دون مراوغة، أريد حقائق لا غير.

انتحبت نور في صمت، من أجل نجاتها ستقول ما تعرفه لهذه المتعجرفة. طلبت شربة ماء، تجرعتها بسرعة، تنحنحت قليلا ثم انهمرت الأحداث بينما عيون محاسن الثاقبة لا تغادر وجهها.

عرفت أبجد خلال دراستي الجامعية، كنت في السنة الثانية أدرس تخصص الأدب الفرنسي بكلية 9 أفريل، حيث تقاطعت طريقي مع طريق أبجد. لكن علاقتي به فعليا يوم اعتقلتني الشرطة. إذ كنت أحاول اختراق صفوف مظاهرة طلابية، ولسوء حظي ظنني أحد رجال الأمن أنني من مؤطري المظاهرة فتلقفوني بالضرب والركل، تم إيقافي مباشرة وبقيت رهن الإيقاف اليوم بأكمله. أبلغت صديقتي في السكن أهلي فجندوا كل محامي غمسيس المستقرين بالعاصمة. فأفرج عني في المساء. حين خرجت وجدت صديقتي تنتظرني لوحدها، للأسف إخوتي الذكور يعيشون ثلاثتهم في فرنسا وأبواي لم يتمكنا من السفر بسرعة من غمسيس البعيدة فوصلا في اليوم التالي. انفجرت بالبكاء، حضنتني وطيبت خاطري، ثم اقترحت علي حضور سهرة مقامة في المسرح البلدي. لأول مرة أسهر ليلا فأنا من الأشخاص الذين يهابون الليل ويسرعون بالعودة بمجرد انحدار الشمس إلى المغيب. لكن ليلتها يجب أن أتجاوز تلك الحادثة.

الصدفة جعلتني أجلس بجانب أبجد. لم يكن الحفل قد بدأ بعد، كان عرضا للزيارة، البخور في المجامر والسناجق المرفوعة كالرايات في الحرب جعلني أتحفز لأغوص في أجواء صوفية جاءت في توقيتها الصحيح لترمم روحي المجروحة وتذيب الفزع الذي سكن وجداني. التفت إلى الجالس جنبي وطلبت منه نشرية العرض، قدمها إلي وابتسامة عريضة تحتل وجهه الجميل. قرأت فقرات الحفل ثم أرجعتها له لأباغته وهو يتأملني. ارتبكتُ بينما هو يسألني إن كنت قد شاهدت عرض "الزيارة" من قبل، حركت رأسي نفيا بينما شغلت أصابعي بسحاب حقيبتي.

طفق يحدثني عن العرض وتلك القطعة التي تُغنى فيها أغنية "يا لراكب عالحمرا"، هذه الأغنية بقدر جمالها الموسيقي فإنها تثير فيه أسئلة كثيرة، سألني إن كنت أعرف أن الأغنية تتغنى بشخص اسمه "مسعود الهذيلي". حركت رأسي نفيا، إذ لم أكن أعرف الأغنية أصلا. انكفأت بداخلي بينما أكمل أبجد سرده للحيثيات المتعلقة بعرض "الزيارة" التي نسيتها بمجرد أن بدأ العرض. ليلتها تخليت عن رصانتي ورقصت كأنني لم أسمع إيقاعا يوما. رقصت معي صديقتي ورقص أبجد، رقص كل من حضر الحفل تلك الليلة. كان يمسك بيدي يراقصني طويلا وعندما نتعب يضع يده على خصري ويجلسني. بعد انتهاء الحفل أوصلني وصديقتي بسيارته الحمراء القديمة إلى مسكننا، وقبل توديعي قال لي فمك الأعوج وأنفك الطويل يجعلان كل الرجال تعشقك. تبادلنا أرقام الهواتف وافترقنا تحت أنظار صديقتي الغيرى. كنا نلتقي مرتين في الأسبوع في مقهى "لارتيستو" نخوض أحاديثا

كثيرة عن السياسة والمعارضة والثقافة والأدب. أبجد شخص موسوعي. لم أنتظر كثيرا لأفهم كم النساء الواقعات تحت تأثيره. لكنه لا يدخل دائرته إلا من تجلب انتباهه. تطلب الأمر مني وقتا لأفهمها وأقتنع بها.

لم أعرف أن أبجد ينحدر من نفس مدينتي غمسيس.

بعد أن أنهيت دراستي عدت إليها ومنها لم أخرج، لم يكن لدي طموح مهني أبدا. فبقيت أرعى أمي المريضة بعد أن توفي أبي بعد تخرجي بشهرين.

السادس عشر

نون النسوة

قد يكون خروجي في هذه الساعة وحيدا، مغامرة، لكني لم أستطع المقاومة أكثر. لتتعافى روحي يجب أن أطلقها في زوايا غمسيس. لعلها هذه المرة ستكون تلويحة الوداع الأخير. ساعات قليلة وتدق ساعة الرحيل. لن أغامر بالذهاب إلى شقتي، فقد بلغني أن رجالا مجهولين قد عاثوا فيها تفتيشا وفوضى لمرتين. متأكد أن مرة قامت بها محاسن والأخرى من يكون فعلها يا ترى. منذ فترة وصلتني رسالة من صديقي الصائغ أيال تفيد بأن نور جاءت إلى محله بتعلة أنها تبيع ذهبا وتركت لي رسالة شفاهية معه. هي لا تعلم أنه مهندس اختفائي ولكنها كانت تعلم بصداقتنا. في الأخير تذكرته، جاءت إليه وقد تخلصت من شرها الطارئ. لقد تغلب قلبها أخيرا، مفاد رسالتها أن لا تعد أبدا، لأنني أحبك سافر اذهب إلى المريخ المهم لا تعد. هكذا إذن ستقتلني محاسن، ستحاول ثانية وما من أنيس آخر ليموت مكاني مرة ثانية صدفة. فعلا الصدف نفسها لا تتكرر أبدا. نور مجنونة حقا سنوات طويلة مرت على علاقاتنا، وها هي الآن في هذا الظرف ترسل لي حبها وهي تعلم أننا لن نلتقي مجددا في غمسيس. أي مغامرة هذه. كم وقتا ضيعت علينا، وكم فرصة.

هناك أمر خطير حصل معها وضعها في مواجهة نفسها. حين تسقط الأقنعة لا تظهر سوى الحقائق. نور، يا امرأة سرت في دمي، سأجدك مجددا وسنلتقي كما لم نفعل من قبل. هذا وعد لي ولها. تفكيري في نور ألغى إحساسي بالخطر في داخلي. فتمشيت دون شعور مني لأجدني أقترب من ميناء غمسيس. اشتدت ملوحة الهواء المختلطة بالعفونة. الليل دامس ومعظم فوانيس الأزقة طمستها تسديدات الحجر. اطمأننت إلى أن لا أحد يعرف مكاني الذي خرجت منه، ولا أحد سيتعرف علي وأنا بهذا الهزال والشحوب، ولحيتي الكثيفة وشعري الطويل إضافة إلى لباس البحارة الذي أرتديه. الرياح ليست قوية ورغم ذلك فالبحر يبدو غاضبا، وأمواجه تقتحم الحواجز الإسمنتية عنوة، تلطمها وتنحسر عائدة. لاعبتني الريح من الخارج وانسكبت عويلا في داخلي وهي تسألني، هل يعقل أن تترك غمسيس لمصيرها وتذهب؟ مصيري يحتم علي الابتعاد، المسافات لا تمنعني من صنع مجد لي ولغمسيس. دلفت إلى الميناء وقفت في الساحة المبلطة وقد تخليت عن حذري كليا. درت حول نفسي وأنا أتأمل المكان. ميناء تعيس مظلم بناياته شبه متهالكة حوائطها غزاها الخز وزاد في تآكلها، غرفة تخزين باردة في الوسط بجانبها مقهى وحانة ثم مطعم للأكلات السريعة، لتمتد على الجانبين سلسلة من ورش التصليح والمخازن الصغيرة التي حولها أصحابها البحارة إلى غرف إيواء للغرباء والمهربين. صفوف من شباك الصيد مرصوفة على طول الحاجز الذي ترسو عنده القوارب حيث تربط إلى أوتاد هناك حتى لا تغريها الأمواج بالابتعاد. ميناء صغير قد لا تحفظه ذاكرة

البحر والجغرافيا لكنه شهد الكثير من الأحداث التي لا تنسى. خلال الفترة التي قضيتها مترجما وعاقدا للصفقات رأيت ألوانا من الحيل والكذب والخداع. كان كل شيء يباع ويشترى على أرض هذا الميناء. وكانت الأخلاق آخر ما يفكر فيه البحارة والرواد. آه كم فيك من الموبقات يا غمسيس! هذا لا يمنعني من القول أن ميناءها هو القلب النابض، إذا توقف عن النبض ستموت غمسيس. جزؤها الصحراوي لا ينقذها لأن شريانه ضعيف جدا، البحر هو النجاة. البحر حياة وسبيل إلى الموت.

طلبت محاسن في إحدى رسائلها لقاء مع أكبر المهربين في الميناء. جاءت المرأة في عزّ الظهر بسيارتها الفخمة يقودها سائقها. وكنت منشغلا بعقد إحدى الصفقات ولم أنتبه لمجيئها فالتحقت بها متأخرا. بدأت تعنفني لفظيا وتلقي في وجهي بأقذع السباب لتختتم قولها صارخة "موش راجل". أنا من طبعي لا أرد على سباب النساء فالتزمت الصمت. كل من سمعها من البحارة والمهربين تجمهروا حولنا وبدأوا بتهديدها، وفيهم من أخرج سلاحا أبيض من بين طيات ملابسه. أحست محاسن بالخطر، ركبت سيارتها وغادرت على جناح السرعة. من يومها بدأت محاسن تناصبني العداء، ثم تحول الأمر إلى سعي إلى القتل حيث فشلت في إقناع زعيم المهربين بالميناء تأمين مرور نصيب من ثروتها خارج البلد.

محاسن امرأة شيطان، حاولت أن تجعلني زوجا لأكون أداة طيعة بيدها عبر قلمي المعارض، ولكن إيماني بالحب أنجاني. وكنت أسميتها محاسن الصَّدَف، بصاد مفتوحة مشددة، أيام

صفائنا، ثم أسميتها محاسن الصِّدف، بصاد مكسورة مشددة، أيام المجاملة، ثم أسميتها محاسن المساوئ، أيام المد والجزر، نكاية في عمنا أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. حبي لنور جعلني أتجاوز كل المحن وأتخلص من النساء المزعجات اللاتي حاولن التسلل لحياتي عدا محاسن، فلها من القوة ما جعلني لا أستطيع التخلص منها.

المعذرة يا غمسيس، أظن أن لقاء الليلة سيكون للاعترافات بسبب كونه الأخير. نعم، لقد عرفت نساء كثيرات في حياتي، حتى وأنا مع نور أقمت علاقات عديدة لعل من آخرها رقية. لست من المتفاخرين بعدد نسائي، ولكن الأمر بدا لي طبيعيا أمام تصلب نور وعدم مبادلتي الحب. أشكرها لأنها لم تفعل ذلك، فلو فعلت لما امتدت علاقتنا كل هذه السنوات الطويلة ولما تغيرت قناعاتي ورؤيتي للأشياء أبدا. رغم ذلك فكل واحدة عرفتها فيها شي من نور. كنت أبحث فيهن عنها. ولعل فرويد يقنعكم في هذا الخصوص حتى تفهموا حالتي ولا تظنوا أنني "دون جوان" في غمسيس الشقية، حيت يقول عن حقيقة تعدد العلاقات للرجل وعن ماذا يبحث: لو جاز لك أن تقع بحب امرأة ثم لا تبادلك حبا بحب، فإن شغفك بها سيزداد بقدر حرمانك منها ويزداد تعلقك بها، فإذا وجدت أو مرت بحياتك امرأة أخرى، تشبهها في الوجه، فإنك حتما ستحب هذه الجديدة، لأنها تبعث إليك ذكريات المحبوبة الأصلية. وإذا مرت بك امرأة ثالثة تشبهها في تكوين الجسد، فستحبها أيضا لأن فيها شبها بالمحبوبة الأولى أيضا، وإذا مرت بك رابعة تشبه الأولى في الفكر والحديث

فستغرم بها أيضا. وهكذا، كلما مرت بك امرأة بها ولو قليل من أوجه الشبه بمحبوبتك الأولى، فستنال منك القبول.

في الواقع أنت لم تحب هؤلاء النسوة وإنما أنت تحب الأولى، وما هؤلاء النسوة مجتمعات إلا بدائل عن محبوبتك الأولى. وأنا لم أعشق غيرها، امرأة واحدة تختزل الجميع.

لم ينتبه أحد لقدومي تلك الساعة إلى الميناء، فالكل هاجع يطلب الراحة أو يثير الصخب في الحانة. استحسنت الأمر فمررت على كل زوايا الميناء. ثم وتوجهت إلى بوابة الخروج. وإذا بيد ثقيلة تسقط على كتفي جعلتني أجفل وأرتعد خوفا، "تي وينك يا راجل توحشناك!" كلمات "بوراص" الودودة أعادت إلي الارتياح. ادعيت أنني مريض من فترة، خرجت الليلة فقط لأنني سئمت الفراش. اقترب مني "بوراص" وهمس في أذني يوصيني بالانتباه وتوخي الحذر وأن لا أعود إلى البيت من نفس الطريق إذ لا يفتأ رجال يطلبونني في الميناء كل يوم. ألبسني معطفه فوق ثيابي بينما الدهشة لم تغادرني. كيف تعرف إليّ وأنا متنكر هكذا؟ بمجرد ابتعادي نزعت عني معطفه وألقيته للريح التي حملته بعيدا ناحية البحر. الوغد يظنني فريسة سهلة. حين وصلت منطقة مظلمة خرجت عن طريق الميناء واتجهت ناحية البحر. تبعت الشاطئ إلى آخره حتى بلغت الجبل الصخري. صعدت من أحد مساربه حتى بلغت قمته. التفت ناحية الميناء. لمحت سيارة أطفأت أنوارها وهي تتجه بسرعة جنونية إلى الميناء. كان تخميني صحيحا إذن، "بوراص" أيها الوغد الحقير كم أكلت على مائدتي واليوم تبيعني! سليت نفسي بوضع احتمالات لثمني.

في البداية كنت مزهوا فاقترحت ثمنا خياليا، لم يتأخر عقلي بتذكيري أن أرخص ما في الوجود اليوم هو الإنسان حتى أن بعض السلع أغلى منه بكثير. وأمثال "بوراص" لا يحتاجون أموالا كثيرة للبيع لأن مبادئ البيع الشراء عندهم معدومة أصلا. يا لهذا الإنسان كم راهنت عليه في غمسيس! الليلة فقط عرفت أنني خسرت الرهان. وتأكدت أن ثمني لن يتجاوز مقدار شمة من القنب الهندي (الزطلة) وقارورة ويسكي مقلد غير أصلي.

وردتْ رسالة على هاتفي الصامت، ظننتها تلك التي أنتظرها منذ ساعات. فتحتها بلهفة، فإذا أيال هو المرسل: "للأسف أبلغك بانقلاب السيارة التي تقل رقية بعد مطاردات مع وحدات الجمارك والأمن، وحسب نشرة الأخبار فإن الأربعة ركاب قد ماتوا". ضاقت بصدري تنهيدة، أطلقتها للريح تذوبها. لتصل بعدها رسالة الأمل. وقفت منتصبا بصقت ناحية الميناء وشتمت غمسيس، ثم حملت حقيبتي ونزلت الجبل الصخري، على الشاطئ لوحت مرة أخيرة لغمسيس. أدرت لها ظهري وابتعدت.

السابع عشر

سلة بيض

باريس، لم تتغيري بعد كل سنوات الغياب هذه. لا تزالين صبية مغرية متألقة تحت قدميها عفن وقبح وهي لا تبالي. باريس، أيتها المدينة التي لا يعرف قسوتها إلا من دخلها هاربا أو مهزوما، ها قد عدت إليك من جديد. جئتك مرغمة. أتظنين أنك ببهرجك ونورك ولهوك ستُنسيني غمسيس؟ أنت لا تعلمين أن شقاء وحزن غمسيس صقلنا لنحب جمالك يا باريس. انخرطت نور في مناجاة مع المدينة المتألقة تحت زخات المطر وقد اندلقت أمام شرفتها. خمس سنوات عاشتها في باريس خلالها أفسدت أمها عليها كل حياتها، طلقتها من زوجها، وربطتها بمسؤولية الاعتناء بها في غمسيس فلم تغادرها. حتى أنها لم تفكر يوما في أبجد. أين أنت يا أبجد؟ في أي أرض رميت نفسك؟ أتراك حيا أم ميتا؟ ليتني أعرف مكانك. بللها المطر في الشرفة فانسحبت إلى داخل الشقة وعقلها لا يكاد يتوقف عن التفكير في أبجد.

إنها ليلة رأس السنة. الكل في السكن يتجهز لسهرة احتفالية عدا نور التي انكفأت تقرأ. بوق سيارة في الخارج لم يتوقف عن الزعيق، شتت أفكارها وقطع تركيزها. أطلت من شباكها في الطابق الثاني. لوحت باتجاه السيارة مستفهمة. أخرج سائقها

رأسه من السيارة وناداها للنزول. إنه أبجد. غير سيارته وجاء يدعوها للذهاب معه إلى سهرة فنية بنزل المرادي. تفقدت هاتفها الصامت فإذا به قد اتصل بها عديد المرات. تجهزت بسرعة وقصدا مكان السهرة. ليلتها أسرف أبجد في الشرب وتحول إلى شخص ماجن يعاكس النساء القريبات من طاولته، وحين طلبت منه نور العدول عن ذلك ضحك ضحكة خليعة وقال لها تعالي أحدثك عن عشيقاتي. اتضح إن للرجل نساء كثيرات يطلبن وده بينما هو يعابثهن ويتبذّل معهن. ليلتها قررت نور أنها ستحجم عن الذهاب معه في مغامرة الحب أبدا، ولم تصدق ليوم أنه يحبها بصدق. رجل قلبه مثل سلة بيض يجمع فيه نساء كثيرات هل يستطيع أن يكون محبا وفيا؟ الإجابة طبعا لا. صرفت النظر عن الموضوع إلى درجة نسيانه، وكلما حاول أبجد فتحه، صدته عمدا أو أفسدته. اكتفت بصداقة عميقة وتبادل فكري ومعرفي حتى جاءت تلك الليلة. كان أبجد ضائعا على غير عادته. يبدو وحيدا جدا إلى درجة التوهان، وعوض أن يجلس إلى طاولة العشاء، ارتمى في حضنها وانخرط في نشيج طويل. واسَتهُ نور. مسحت دموعه وقبلته بحنو. ليلتها استيقظ الحب فيها وايقظ كياناتها. قادته إلى غرفتها وناما بأحضان بعضهما. لكن أمها قطعت عليهما تلك الحميمية قبل أن تعترف نور وهو مشغول الذهن بعيدا يفكر في أشياء غامضة عصية على فهمها.

أين أنت يا أبجد الآن؟

لا أدري إن وصلتك رسالة العم أيال، أم تراك تلقفتك محاسن. ما الذي ورطك معها يا ترى، السياسة أم المال؟ أجزم أنها

السياسة رغم أني لم أعرفك يوما ولك طموح في هذا المجال. ثغرات كثيرة لا أفهمها وأحداث غاب الربط بينها ولكنها تصب عندك.

متى تظهر وتميط لثام الغموض عن عيني؟

الثامن عشر

باريز

نام أبجد قرابة الثماني والأربعين ساعة، قام فيها مرة واحدة إلى الحمام. ليعود لينام مجددا بهدوء وتنفس عميق، ثم ما يفتأ صراخه يتعالى وهذيان لم تفهم منه شيئا. حين استيقظ لم يغادره الشحوب ولا تشتته. بدا هائما ونظراته زائغة لا تستقر. دفعته نور داخل الحمام برفق. لأول مرة تراه بهذه الحالة شعره مستطيل يلتقي عند الصدغين بلحية كثة. يبدو أنه منذ زمن لم يذهب إلى الحلاق. ذهبت تجهز له فطورا فالوقت ما زال ضحى ومن الجيد أن يبدأ بحمام ثم فطور من الأجبان التي يحبها وقهوة ثقيلة. بدت الملابس التي اقتنتها له أوسع بكثير من قياسه. ما الذي مرَّ به أبجد ليجعله بهذا الهزال وهذه الفوضى؟ جلس أمامها وهو ينشف شعره الطويل، وأقبل يأكل بنهم ويشرب القهوة دون أن يتفوه بكلمة واحدة. أخبرته نور أنها سترافقه إلى الحلاق بعد الفطور ثم يذهبان في جولة. فاكتفى بالقول أنه لا يرغب في القيام بجولة فهو ما زال يشعر بالتعب ويود العودة إلى البيت ليرتاح. نظر إليها بامتنان وقال: "كنت أظن أنك لن تجديني أبدا، كم شككت في منصف فليغفر لي الرب". ابتسمت نور أمسكت ذراعه بينما هي تنتعل حذاءها ثم جذبته للخروج.

دلفا إلى محل حلاقة يديره رجل يوناني قصير وبدين، حين أبصر نور هش وبش لها وابتسم مرحبا بلكنة مضحكة:

-هلا هلا نور .. زمان زمان وأنت جارتي. فين غبت؟

-المشاغل يا شيتوس، الدنيا حقيرة تجعلنا دائما منشغلين.

-أي والله نور، أنت تسكن فوق يعني طابق ستة تحبش تجي عندنا!

-لا لا يا شيتوس، لقد عدت للعمل والآن ظرف خاص، كيف حال آجوت؟ هل ما زالت تشكو طوال الوقت من مرضها الوهمي؟

-الله يفرج، آجوت زوجة نكد، طول حياتها شكوى شكوى من حتى شي.

ضحكت نور وربتت على كتف الخلاق شيتوس ومازحته:

-لكنك رغم كل شيء تحبها لأنها جميلة.

- صحيح نوغ، أحبها جدا، خشمها مثل خشمك بالضبط.

-إذن لا تتورط وتحبني حتى لا تتعب.

قهقهت نور، بينما أبجد يتنحنح بقوة ويذكرها أنه موجود وأنه قد ملّ من هذا الحديث.

-المعذرة نسيت أعرفك، هذا صديقي أبجد، جاء مؤخرا من غمسيس، هيا اعتن به وسأعود لاحقا.

مد شيتوس الحلاق يده يصافح أبجد ويتأمله. لقد تعود عليهم هؤلاء اللاجئين، كيف تخاطر نور بقبول مرافقته؟ بدا له أبجد يشكل خطرا دون سبب واضح. طلب من نور أن تعود بعد ساعة ونصف لأن أبجد يحتاج عناية تتطلب وقتا طويلا.

جلس أبجد في المقعد الجلدي الوثير وأسلم رأسه لشيتوس، حيث غسل له شعره ونشفه ثم وضع رغوة الحلاقة على لحيته بعد أن قصرها له بالمقص. عملت يدا شيتوس بجد، إذ يبدو أنه متمرس في عمله. فتح أبجد معه الحوار فانهمر مثقلا بالحكايا.

-شيتوس اسم يوناني ؟

-نعم يوناني أصيل.

-وكيف تتكلم العربية بيسر وأنت يوناني؟

- أنت من غمسيس؟

-تعرف غمسيس أيضا. نعم أنا من غمسيس، تلك المدينة التي لفظتها الحياة.

-لا تستغرب أنني أعرف غمسيس لقد زرتها بدعوة من نور عدة مرات، أنا عشت في تونس سنوات طويلة.

-ما الذي طوح بك هناك؟ أهي قصة عشق؟

قهقه شيتوس طويلا وأجاب بينما يداه لا تتوقفان عن العمل.

- أنا العجوز شيتوس كما تناديني مدام نور. ولدت وعشت طفولتي وبداية شبابي في تونس. جدي كان بحارا وتاجر مرجان

كبير. في صفاقس تحديدا، يوجد حي يوناني بأكمله قريب من البحر يتعاطى أهله أنشطة متصلة بالبحر. اليونانيون معروفون بتفوقهم في البحر منذ القديم. واندمج سكانه اليونانيون مع أهل صفاقس وتبادلوا البيع والشراء. أتعرف باب القصبة والساحة التي تقابله وأنت تنعطف يسارا؟ ستعترضك الكنيسة الأرثودوكسية بطلائها الأبيض والأزرق، خلفها تماما كان جدي يملك بيتا كبيرا ترعرعت فيه. جاء جدي مهاجرا من مدينة الإسكندرية المصرية واستقر في صفاقس، حيث أن تجارة المرجان جد مزدهرة فيها. هل تعلم؟ كنا نعيش مع المسلمين واليهود حياة صداقة وتعاون، لم تطرأ عداوة يوما مع أي أسرة حيث كنا أطفالا نلعب مع ونقصد البحر ونتنافس في الغوص دون أن نشعر بأية فوارق بيننا. أول اليونانيين وصلوا هناك من عام 1875 اندمجوا سريعا في المجتمع ، لهذا أتكلم العربية بطلاقة. ظروف كثيرة أجبرت والدي على العودة إلى اليونان ثم التحول إلى فرنسا حيث بقينا هنا. ما زلت وفيا للغة العربية وأتكلم بها مع كل زبائني العرب.

حديث شيتوس وحكاياه عن الماضي حفزا أبجد فانفتحت أساريره ولانَتْ. أصبح جاهزا للحكي، ولطالما كان حكاءا ماهرا. عادت نور محملة بأكياس كثيرة، أعطت أحدها لشيتوس عربون صداقة وجيرة، وحثت أبجد على مساعدتها وعادا مسرعين إلى الشقة. أوصلت أبجد إلى السرير لينام ما أمكنه حتى يتخلص من كل التعب والإنهاك. وانهمكت في المطبخ تعد طعاما: كسكسي بالحوت، سلاطة مشوية، ملوخية، وكفتاجي.

يجب أن تستعيد أبجد باستعادة أجوائه في غمسيس. ستذكره بكل شيء يحبه، وستبدأ ببعض ما يوجد في رأس القائمة، الطعام. روائح ونفحات الطعام غزت أنفه، أيقظته من نومه، ودفعته لينهض ويتجه إلى المطبخ. طاولة ملآى بطعام يحبه أعاده مباشرة إلى غمسيس.

آه يا غمسيس كم خططت للهروب منك حين أملّ كل شيء، وكم كنت أهرب إليك حين تضيق بي العاصمة المجنونة. فاذا أنت ترافقيننا في عاداتنا وأفكارنا وطريقة كلامنا وهذياناتنا عند النوم. غمسيس، أيتها المدينة التي شهدت قيامة رجلٍ ماتَ فيَّ وعادَ حيًّا بحبي.

جلس إلى الطاولة، لكنه لم يشعر برغبة في الأكل. كانت رغبته في الحديث أقوى وأعنف.

-نور، اجلسي، ليس لديك جيش ليأكل كل هذا!

-ليت لي جيش، كان وجدك بسرعة ولا أُمضي شهورا طويلة في القلق عليك.

-أعرف أنك ترغبين في الاستماع، وأعلم أن الأسئلة تفيض صامتة من فمك.

ردت نور بصمت طويل، بينما انغمس أبجد في هاتفه. ليصلها بعد قليل إشعار بوصول رسائل إلى حسابها بالمسنجر. استقبلتها نور وفتحتها فاذا المرسل هو أبجد. كانت الرسائل عبارة عن تسجيلات صوتية عديدة.

-لقد سجلتها خصيصا لك. اسمعيها أولا، ثم أنا جاهز لكل أسئلتك.

ونهض عن الطاولة ليعود إلى غرفة النوم وينام لأول مرة بهدوء دون هذيان.

التسجيل الأول:

سيل من البصاق والشتائم نحو غمسيس. هكذا ودعت المدينة تحت جنح الظلام. ومزيج من القلق والفرح يخالطني. ها أنني أخيرا أوليكِ ظهري أيتها المدينة المتقلبة بين العطش والملح، بين الصحراء والبحر، لعلي أجد فضاء أرحب منك يسعني بنزقي ومزاجيتي، عنادي وتهوري، لعلي أنسى هفواتي بعيدا عنك، لعلي أتطهر وأعود إليك ناصعا، لكنك أيتها المدينة الحمقاء لا تريدين البياض، دائما ما يشوبك طارئ مدلهم. يا غمسيس أناديك بأعلى صوتي الآن والماء يلطم جوانب المركب يغطي ندائي، لا أحد يأبه لصراخي فالكل يصرخ خشية الخوف والموت. لا يجبرك على الصراخ إلا شيء قد رأيت في عمقه الرعب، وفي قلبك عشت رعبا يا غمسيس. أنا الآن في عرض البحر يلهو بي الدوار والحنين بينما قلبي قد مات عند الشاطئ، حملني إلى المغامرة دون تردد.

التسجيل الثاني:

انهكنا الجوع والانتظار، أبصارنا لم تفارق خط الأفق علنا نصل قريبا، لعلنا نرى الحياة على الشاطئ. لكن لطمات الماء على جوانب القارب تنبئنا بأننا في عرض البحر بين فكي الخطر تماما. نحن قرابة الستين شخصا أكبرنا امرأة في الستين وأصغرنا طفلة

بعمر السنتين. الكل يركب لعبة الخطر، الكل يهرب لينجو من سياط الإهمال والتهميش.

التسجيل الثالث:

الماء يتسرب. هيا انفروا. كل من جهته، لنفرغ الماء المتسلل للمركب حتى لا يغرق، هيا انهضوا. كان هذا قائد الرحلة يصرخ فينا، وكنت الوحيد الذي لم يأخذ منه هاتفه، لقد تجاوزنا الاثني عشرة ساعة في البحر، أي مصير ينتظرنا؟

التسجيل الرابع:

كنا نسابق الماء المتسرب للبحر لساعات طويلة حتى نال منا التعب. فجأة ادلهمت السماء ونزل الماء مدرارا. لم أر في حياتي مطرا بتلك القوة والغزارة. بصعوبة أكملنا محاولاتنا بإبعاد الماء حتى لا نغرق. الوقت يمر بطيئا كخيط مطاط. اللهم نسألك النجاة.

التسجيل الخامس:

أصوات تهليل وفرح لركاب القارب ثم صوت أبجد.

أخيرا نجونا لقد تفطنت إلينا سفينة خفر سواحل إيطالية. ها هي تتجه نحونا ببطء حتى لا يغرق قاربنا. زعق قائد المركب فواصلنا رفع الماء من المركب من أجل سلامتنا حتى تصل إلينا السفينة الإيطالية.

التسجيل السادس

ها قد وصلوا. مضطر أنا لإخفاء الهاتف لأرى ماذا يفعلون بنا أولا. يلوح لنا فريق من الجيش الإيطالي بصحبة إطار من مسعفي وأطباء الصليب الأحمر. ها هم يمدون جسرا نحو المركب لنمر عليه إلى السفينة. سأصعد الآن.

التسجيل السابع:

نحن الآن بصدد الإيقاف. أجهل حتى المكان أين. فبعد أن فحصونا على ظهر السفينة وفتشونا، وصلنا لليابسة وحملتنا حافلة أمنتها قوات من الجيش. انزلونا في هذا المحتجز. نحن الآن في الليل، منذ ساعات طويلة ننتظر ولكن لا يلوح في الأفق شيء. فقط حركة متواصلة من الأمنيين والمترجمين.

التسجيل الثامن:

بعد التحقيق معنا أعطونا استمارات ملأناها ثم قسمونا إلى قسمين من مهاجرين غير شرعيين وطالبي اللجوء السياسي. أما أنا فقد كنت في فئة طالبي اللجوء. بعد التحقيق أصعدوني وثمانية أخرين حافلة وها نحن في الطريق نحو الشمال، منذ أربع وعشرين ساعة لم أنم. سأحاول النوم في الحافلة فقد هدني التعب.

التسجيل التاسع

أفقت على هزات تحرك كتفي. قال لي أحد الرفاق أننا وصلنا إلى مدينة جنوا، وقد أخبرهم السائق أن جمعية ستتسلمنا

وتساعدنا بإيوائنا ومتابعتنا صحيا لفترة من الزمن حتى يكتمل التحقيق ويُتخذ القرار في مصيرنا.

التاسع عشر

برفقة الحراقين

كانت رحلة عصيبة لم أتصور أنني سأخرج منها سليما. ورغم ذلك أحس أنني فقدت من نفسي وروحي أجزاء كثيرة تناثرت على شاطئ غمسيس، وعلى مياه البحر الأبيض المتوسط، وعلى أراضي إيطاليا. لا أدري أي معجزة حصلت لي، لكن هذا ما حدث لأكون أنا الآن أجلس في الشانزيليزيه وأحتسي قهوة بهذه المتعة القصوى.

حين تخدمك الصدف ستعرف أنك محظوظ حقا. جاء دوري في الدخول إلى غرفة التحقيق، فدلفت إليها غير واثق من أي شيء حتى إسمي يبدو أنه لا ينتمي إلي: أبجد! اسم ثقيل يربطني إلى الخلف بذاكرتي الثقيلة ككرة حديدية ضخمة. ماذا أفعل بكل ذلك الإرث وأنا أتأهب لمصير جديد؟

أربعة من المسؤولين ومترجم انحشروا في مكتب ضيق. جلست قبالتهم وأنا أحاول التماسك. ترجم لي المترجم عشرات من الأسئلة بلغة فصيحة وترجم إجاباتي بكلام كثير أيضا. وكان يحملق بي بطريقة غريبة. توجست بداخلي، وانقضت الهواجس على رأسي تملأه. خشيت أنه يبيت لي أمرا سلبيا. فرغم ما حدث

معي فإن مسحة الواثق لم تغادرني وبطريقة ما حافظت على نظافتي وأناقة هندامي. وذلك يجعل كل ما يراني يتخيل أنني شخص متعجرف مغرور. صليت في أعماقي أن تكون الأمور لصالحي ويبقونني في جنوا ولا يعيدوني إلى المخيم في الجنوب. وانتهى التحقيق دون أن أسمع شيئا. في مساء ذلك اليوم، زارني المترجم في البيت الذي أسكنتني فيه جمعية إغاثة اللاجئين مع ثلاثة آخرين. الأمر كان غاية الغرابة بالنسبة لي. باقتضاب وبلهجة جنوبية طلب مني مرافقته في جولة صغيرة. تمشينا على الكورنيش المطل على البحر وتحدثنا:

-لا تتفاجأ، قرأت ملفك عديد المرات، واتصلت بأحد معارفي في غمسيس حيث أكد لي أنك هاجرت خلسة عبر البحر.

-غمسيس؟

-أنا من غمسيس أيضا، كنت أسمع باسمك، تقابلنا مرة عند وفاة أنيس الحلاق، لكن لم نتبادل الحديث. أعجبتني سيرتك حين تبنيت القضية وجيشت لها حتى أصبحت قضية رأي عام، سمعت أن بعض الجناة وقعوا. سفرك كان بمثابة الحفرة التي سقطوا فيها. أنا وأنيس بيننا قرابة، أنا ابن عم أمه. وأنت صاحبه ومن ذكراه..

-أنيس! حقا؟ هل أمسكوا الجناة؟

-نعم، القضية ما زالت معقدة، المهم تدخلت لصالحك ستتحصل على تصريح لمدة شهر واحد، خلالها يجب أن تقرر ماذا ستفعل وكيف تتدبر أمر جواز سفرك.

بعد مضي أسبوع من لقائنا ذاك، وجدتني لا أستطيع الركون ولا السكون. الحركة نسق لا أستطيع الخروج عن دائرته. فأنا كائن أكره الروتين والتكرار. حملت حقيبة ظهري التي فيها متاعي القليل. غادرت البيت الذي تؤجره لنا جمعية حماية اللاجئين. اتصلت بالمترجم وأخبرته أنني أنوي الرحيل مهما كلفني الأمر حتى دون جواز سفر. الوضع الذي أنا فيه يدفعني نحو المغامرة أكثر. طلب مني أن أنتظره ريثما ينهي عمله. أقلني لاحقا بسيارته إلى محطة القطار، وجلسنا هناك في المقهى. احترم قرار سفري وزودني بنصائح كثيرة. عند سماعنا صفارات القطار تنبئ عن دخوله المحطة، وضع في يدي لفافة من الأوراق النقدية وطمأنني بأنني سأجد من ينتظرني في محطة ميلانو قبل تغيير القطار نحو باريس.

كانت أمامي خمس ساعات بأكملها حتى أغادر إلى باريس. قاتل الله الملل الذي جعلني أخرج من المحطة وأتجول في المدينة. رغبة مفاجئة في القراءة طفحت في بالي. خرجت أبحث عن مكتبة علني أجد كتبا اشتريها. ابتعادي عن المحطة وعدم معرفتي بالمدينة جعلاني أضيع. ووجدت نفسي في شارع ضيق مبانيه قديمة، ورائحة العفن تثقل هواءه. تملكني التوجس فحاولت الإسراع لأبتعد، غير أنني وجدت نفسي محاصرا بمجموعة من الشبان بدوا كأنهم خليط عجيب من الأفارقة والبنغاليين يبدو أنهم مهاجرين غير شرعيين. أحاطوا بي جميعهم، وبلكنة كريهة طلبوا مني تسليمهم كل ما عندي. للحظة غدوت بلا مال وبلا ثياب حتى تذكرتي التي حجزت بها مقعدا في قطار باريس مزقوها وغرقوا في

موجة ضحك ساخر. دفعوني لأغادر فوقعت في مستنقع من الماء والتراب والقاذورات. استغرق الأمر مني زمنا طويلا لأجد المحطة، هناك رفض قاطع التذاكر تمكيني من تذكرة جديدة رغم أنني أخبرته بما حدث معي. ولما يئست من أن يساعدني أحد مسؤولي المحطة، توجهت أستجدي المسافرين المنتظرين في المحطة لكن ذلك لم يفلح. منظر المشرد الذي أنا فيه وثيابي المتسخة منعت الناس من مساعدتي. وأطلقت سلسلة من الشتائم بلهجتي الجنوبية القحة. فإذا شاب يقترب مني وهو يجر حقيبة كبيرة ويسألني: أنت عربي؟

طفقت أنتحب أمامه وأحدثه بما حصل معي وليس أمامي سوى نصف ساعة لتأمين ثمن تذكرة جديدة. فتح الحقيبة وأعطاني بعض الثياب. ثم اشترى لي تذكرة جديدة وكيس طعام. كان رقم الهاتف الوحيد الذي تحفظه ذاكرتي هو رقم نور وأيضا بريدها الإلكتروني لسهولته وبساطته. دونتهما في مفكرة الشاب، كان اسمه "منصف"، وأكدت عليه أن يتصل بها ليخبرها أنني متوجه للدخول إلى فرنسا عليها أن تكلف أحدا بالبحث عني. ثم ودعني راكضا ليلحق بالقطار المتجه إلى نابولي. ومن سوء حظي ومع دخول القطار محطة نيس في الأراضي الفرنسية دارت معركة بين مجموعتين من أصحاب البشرة السوداء والبيضاء. ما استدعى صعود عناصر كثيرة من الأمنيين. تسللت لأبتعد عنهم وأنزل من باب آخر، لكن شرطيا كان في المكان ولا يسمح بنزول الركاب إلا باستظهار بطاقة الهوية أو جواز السفر. هناك توقفت رحلتي حيث أمضيت في الحجز قرابة الستة أشهر.

العشرون

موزاريللا

.. قائلا إنه يستطيع!

في المرة الأولى التي كان معها، كان في عجلة من أمره،

محرجا جدا، وأسرع مما هو مطلوب.

إنه يريد.

إنها تريد.

لكنهما لا يريدان معا.

ولم يفهم أبدا هذه الأحجية العجيبة!

كانت الليلة الأولى عند بابه تقول له كلمات يستطيع بالكاد يسمعها من خلال الجهد المبذول للتعرف على الواقع، وحتى لو توقف رأسه عن القول. أهذا حلم؟ ألم نحلم بهذا؟ ويذكر نفسه أنه لا، لقد كان هذا حقيقياً، كان هذا حقيقياً لأنه خلفه سيغلي الماء قريباً. سيدخل الملح ثم تجهز المعكرونة، وسيصدر الفرن الكهربائي صفيراً، وسيأتي العشاء بعد ذلك.

عقله لا يفكر. أووووه، إنها هنا، لقد عرفت ذلك، بدلاً من ذلك، لا ينفع دماغه. ليس له دماغ على الإطلاق. رائحة جبن الموزيريللا تملأ المكان. إنه يفكر الآن فقط بعد اتضاح الجبن المطبوخ. ما الوقت هذا؟ ولا يعني ذلك السادسة. لا يعني ذلك المساء، ولا

يعني حتى وقت العشاء. هذا يعني فقط، أين نحن في الكون، ولأنني عشت هذا مرات عديدة في الخيال أصبح للرقم المقدس "ستة" أشكالا مختلفة من الحقيقة.

والآن قل لي، أيّ واقع نحن؟

في المرة الأولى، لم يطرح أية أسئلة يمكن اعتبارها أسئلة. لا شيء صحفي مثل متى وكيف وأين وماذا، والأهم لماذا؟ نعم، تلك اللماذا.. إنها حقيرة وتخفي وراءها نيات خبيثة وغباوات متأصلة مثل: بالنسبة إلى، كما في، لماذا هو، متى كان، أي وضع هو، الخ من تفاهات الصحافة. لماذا أيّ شخص على الإطلاق؟ ولكن معظم رفاقنا مشتتون أو ميتون، فخصوصا لماذا هو؟ لكنه لا يطلب أي شيء له صفة إعلامي. هو فقط له خطوات في الغربة يسمح لها بالمرور. إنها تنظر حولها على نار هادئة، في الماء ومعجون الطماطم والمعكرونة والدجاج المتبل في الفرن؛ فتدرك على الفور إنه يريد مضاجعتها على ضوء صينية البطاطس، وتحت سحر رائحة الطعام الذي يجهز ببطء شهي.

عندما دخلتْ المطبخ لم تكن لديها من قبل خططا لاحتوائه ودعوته لاختراقها ولو سريعا. لها الآن أن تفكر وتتخيل إنها يجب أن تتوسع. تزهر، تخضر. تترنح. تضيع. تفتح فمها لتعتذر، وهو بالكاد يفكر. إنه يفكر فقط إنه يريدها أن تكون كذلك. هذا في الواقع كلمة "آسفة" من لسانها يجب أن تكون محفوظة منذ أزمان سحيقة. آسفة، وآسف! ما هذا السخف؟ فقط، معظم

الجرائم الكبرى، مثل الزوال من حياته إلى الأبد، تبدأ من المطبخ وليس من غرفة النوم ولا من السرير المزدوج، رمز العبودية.

يأخذ يدها ويمسكها على وجه السرعة. إنها تنظر إلى الأسفل وتغلق فمها، وربما ينبض قلبها بشكل أسرع. ربما هي تتبلل الآن. ربما ثمة فيضان ينبع في الأسفل. يتسارع التنفس، وربما يتوقف. لا يستطيع سماع استغاثاتها فوق الجسد بصوت عالٍ يندفع في أذنيه. إنه فاقد لجمال العضلات. سيان. هو عالم فسيح متكامل وغرائبي ومشوق. وهو دقيق في انتظاره، لذا فهي الشخص الوحيد الذي يتحسس بلطف ظله ويتجه نحوه نيابة عنه. يرفع رايته على جزيرة المطبخ، وكلاهما لا يزال يرتدي قطعتين من ملابس في الغالب مزعومة. يحيط نهدها بكفه، يمسده برفق، ينهال عليه ممرغا وجهه فيه، وبين كل ثلاث أو أربع قبلات على ميسم الثدي المكور، كان يشم الحلمة شمة طويلة، ثم يمسك صدرها بكلتا يديه ويهزه يمنة ويسرة وهو يصرخ بصوت شبق خفيض "إيهٍ يا أرانبي، يا خنازيري الصغيرة!".

الحادي والعشرون

أُمُّهُ

عندما قررت محاسن أن يكون انتقامها من أبجد قويا وشاملا، تذكرت إنها قد نسيت تماما أهم ورقة رابحة في هذا الانتقام الماحق. ورقة يمكن لها أن تغير اتجاه الحرب وموازينها لصالحها هي، خاصة إذا ما أحسنت اللعب بالورقة الرابحة بعيدا عن انتباه العيون والأفهام، حتى عيون أقرب الناس اليها.

أمُّهُ.

وجاءها جواسيسها بأخبار جُهينة اليقينية. ما زالت أمُّهُ حية ترزق، وتعيش في منزلها نفسه، في "السبخة"، القرية البعيدة عن البحر والذاهبة بإصرار نحو تخوم الصحراء. لكن الأخبار أكدت أن أمّه تسافر كثيرا ما بين قريتها ومدينة غمسيس، وتتخذ أطراف الميناء وجهتها حيث تبقى هناك لساعات طويلة لوحدها دون أن تلتقي أحدا، حتى يحل المساء، فتقفل راجعة مع آخر سيارة نقل عمومي إلى القرية الصحراوية.

في ذلك المساء، ذهبت محاسن لوحدها دون مرافقة زبانيتها وكلابها ومعجبيها وحرسها وخدمها ومتزلفي أموالها الكثيرة وضحايا جمالها الكاسر. وكان نسيم البحر خفيفا يحمل معه

رائحة زفرة الأسماك والكائنات البحرية. وعلى مرمى البصر، إلى اليمين في اتجاه آخر أطلال الميناء، ثمة مطعم للسمك المشوي، يستغل غياب القوانين ليغرز قوائم كراسيه وطاولاته في رمل الساحل الهش الذهبي النظيف دون حجارة أو نتوءات الصخور، وليبدأ بتقديم وجباته بمجرد غياب الشمس، وظهور قوارير البيرة المخبأة داخل الرمال، فتتحول تلك القطعة من التقاء الرمال بالمياه بالسماء إلى بؤرة للصخب والدخان والشتائم والنتانة والعربدة ولعب القمار والمخدرات والدعارة والجريمة بشتى أنواعها.

ورأتها.

ومن بعيد عرفتها.

إنها "وَطْفَة"..

لقد قضت في كنفها سنوات شبابها الأولى فلن تنساها أبدا. نفس القامة وغطاء الشعر والهيكل والملابس التي يغلب عليها اللون الأخضر.

بدأ الظلام على وشك أن يحل، وأصوات النوارس تودع الشمس الغاربة. وذلك الصوت المميز لوصول وانحسار موجات البحر على البساط الرملي الذي لا يمكنك إلا أن تمشي عليه حافي القدمين، شاعرا بنشوة مداعبة الماء لأصابعك وسحر أن تكون في تلك اللحظة جزءا من الطبيعة.

نادتها عدة مرات، بكنيتها، بلقبها، ثم باسمها الصريح الأول. نادتها بـ"يا عمة ويا خالة ويا جدة ويا أمي ويا أم أبجد ويا حاجة ويا سيدة ويا سخطة ويا لعنة ويا أي شيء ويا كل شيء".. لكن، بلا أدنى طائل!

لا جواب على الإطلاق.

ما هذا؟ هل يموت الإنسان واقفا قبالة البحر؟

أم تراها فقدت صوابها بسبب ما فعله ابنها بها وبعائلته وبكل من عرفه. بها هي، محاسن، زوجته الأولى، وأولى ضحاياه.

كان صوت موج البحر يعلو كلما اقتربت خطوة من العجوز المنتصبة كالتمثال على ساحل غمسيس.

من خلل الأصوات جميعها، أصوات تكسر موجات البحر وأصوات النوارس وأصوات البحارة العائدين من رحلات الصيد، وأصوات البشر البعيدة القادمة من ذلك المطعم أو المقهى، وصوت لعب الريح بأطراف الثياب الخضراء، سمعتْ ذلك الأنين.

سمعته وميزته، فهي تعرف نغمته وطبقته وإيقاعاته.

تمزق قلبها للحظة، ورغبت بشدة أن تركض وتذهب لترمي بنفسها على الأمّ العجوز وتبكي في أحضانها بكاءا طويلا حتى تجف الدموع. لكنها كبحت جماحها ولم تفعل، بل تسمرت في مكانها، ورمت بحذائها إلى الأرض ولبسته وعدلت من هندامها واستدارت لتغادر المكان.

من خلل الأصوات جميعها، ومن خلل حبات الرمال، ونقاوة الموج، سمعتها تنشد تلك القصيدة التي لطالما كانت تسمعها في أرجاء البيت، كلما ذهبت رفقة أبجد لزيارة والدته في "السبخة" البعيدة. كلما كانت تراه تقبله وتمسك رأسه بكلتا يديها وتقول بجذل: "ولدي، أيها الجميل".

أبجد طفل ذكي ومرح
يحب الكلاب والمحيطات
يقرأ عن الحيوانات والنباتات
ويتعلم عن الأمواج والبراكين

يحلم بأن يكون بحارا
يسافر في البحر بسفينة
يصادق الدلافين والسلاحف
ويستمتع بالمناظر الجميلة

ولكن في يوم من الأيام
حصل أبجد على هدية مفاجئة
كانت كلبة صغيرة ولطيفة
بلون أزرق واسمها ميشا

فرح أبجد بالكلبة كثيرا
وأحبها من كل قلبه
وقرر أن يأخذها معه
في رحلته إلى البحر

ولكن عندما وصل إلى الشاطئ
وضع الكلبة في القارب
وبدأ يبحر في الماء

ويغني بصوت عال:

أنا الذي رأى كل شيء
ولا يريد ذكرك يا بلادي
هجرت الأهل والتراب
حرقت تاريخي كله
وأسلمت العدو قيادي

فجأة شعر برجة قوية
وسمع صوتا مخيفا
نظر خلفه ورأى
حوتا أزرق ضخما

كان الحوت يبتسم له
ويقول بلغة الحيتان
"مرحبا يا صديقي الصغير
أنا أحب الكلاب الزرقاء"

صدم أبجد من الحوت
وخاف على ميشا
فأخذها بين يديه
وقال للحوت بجرأة:

"هذه ليست كلبة زرقاء
أنها روحي الحبيبة
اسمها ميشا وهي ملكي
فلا تقترب منها يا سيد الحيتان

ضحك الحوت بصوت مسموع
وقال لأبجد بود ظريف

"لا تخف يا صغيري
أنا لا أريد أن أؤذيك

أنا فقط أمزح معك
وأريد أن ألعب قليلا
هل تعلم إن الحيتان
تحب النكات والمرح"

استرخى أبجد قليلا
وقال للحوت بابتسامة صادقة
"أنا أيضا أحب النكات والمرح
ولكن مزاحك كان مخيفا"

اعتذر الحوت لأبجد
وقال له بصدق
"أنت ولد شجاع وطيب
وأنا أحبك كثيرا.

الثاني والعشرون

العمى والنور

ها قد عاد أبجد إلى عادته القديمة تلك. يغلق على نفسه باب الغرفة ساعات طويلة. أصبح يهملها كأنها تحولت إلى شبح في شقتها. لا تعرف ماذا يفعل بالضبط، كل ما يصلها همسات غير مفهومة وصوت كالحفيف تصدرها خطواته عندما تحتك بخشب الأرضية. تعللت نور مرات كثيرة بالعصير والماء والأكل أحيانا، وتفتح الباب دون استئذان علها تظفر بمعلومة صغيرة تساعدها على معرفة ما يصنع. لكنها بمجرد أن تقترب منه، يصرخ في وجهها بقسوة ويطلب منها المغادرة فورا. فتخرج صاغرة يعضها الغيظ. بعد تكرر الموقف يئست من أن تنال لحظة اهتمام واحدة. آخر مرة أغلق على نفسه، واستمر في خلوته طوال يومين، في آخر اليوم الثاني ومع بداية المساء جمع بعض الثياب في حقيبة ظهر وعدة دفاتر ورزمة أوراق وغادر. عادت نور، كعادتها قصدت المطبخ تجهز عشاء خفيفا. وضعت بعض الأكل في طبق وحملته إلى أبجد. طرقت الباب مرات ومرات. لم يصلها صراخه المعتاد بأن تتركه وشأنه. فتحت الباب والشك يتضخم بداخلها. الغرفة خاوية من ساكنها الذي ترك آثاره واختفى. سرير غزته الفوضى بكومة ثياب تداخلت مع الوسائد

والأغطية، كتب غير مرتبة، أوراق مبعثرة أرضا، منفضة فاضت بأعقاب السجائر. كل أدواته على طاولة الزينة متناثرة، فوقها ورقة ملقاة بإهمال. أمسكت نور بلهفة تقرأ ما فيها "آسف على الإزعاج الطويل، لقد غادرتُ فلا تبحثي عني". سطرٌ جافٌّ لا يحمل أية مشاعر. حتى اعتذاره بدا سطحيا كأنه أُجبر على طلبه. كورت نور الورقة بقبضتها ورمتها بعيدا، وهي تكيل السباب والشتائم لأبجد. ها قد اختفى من جديد، عاد إلى عماه القديم حيث لا يبصر أحدا أمامه. كأن سنة كانت طويلة جدا حتى يستقر في مكان واحد. لم تسعه باريس على اتساع مساحتها. لم تدري أن الأفكار ضاقت به، لا المكان. يجب أن يوجهها إلى حدث ما يفوق طاقته حتى يعود إلى استقرار قصير. أي حدث هذا، بل أية مصيبة يجهزها هذا الأبجد؟ خرجت من الغرفة وصفقت الباب خلفها. ذهبت إلى سريرها. نامت دون أن تأكل شيئا من العشاء الذي جهزته. استجدت النوم وهي تضيف جدائل جديدة لضفائر حزنها القاتم، لكن غضبها الفائر لم يسكنها، وجعل النوم يهجرها. تلك الفورة جعلتها تقوم من مكانها وتنزل حقيبة كبيرة من فوق الخزانة. وبجنون امرأة حاقدة وظّبت داخلها الثياب. غيرت ثيابها، تثبتت من أوراقها الشخصية وأضافت حزمة من الأوراق النقدية. تحلّت بكل قطع المصوغ الذهبية التي تملكها. ثم سحبت حقيبتها وغادرت الشقة. عرجت نور على الحلاق شيتوس، ألقت إليه بالمفاتيح "في المطبخ مؤونة كثيرة، ثيابي وكتبي وبعض أغراضي الخاصة اجمعها في غرفة واقفلها واعرض باقي الشقة للكراء. غرفتان وحمام وصالون ومطبخ كافية لحياة اثنين من الطلبة. الإيجار أرسله لي عبر

حوالة ولا تنسى أتعابك". عانقته بحرارة وأسرعت تجرّ حقيبتها بينما الحلاق شيتوس يمطرها بوابل من الأسئلة. يئس من حصوله على إجابات حين توقفت سيارة تاكسي. صعدت نور وأعلمت السائق أنها تقصد المطار. ستعود إلى غمسيس ولن تضطر أن تنتظر رجلا لا يراها مهما فعلت من أجله. من أجل ماذا تتحمل هذا الصخب؟ رتابة غمسيس ولا خيبة في باريس.

طائرتان حطتا في مطارين مختلفين، الأولى في مطار الجزيرة الرابض تحت الحرارة اللاهبة، القريب من غمسيس، والثانية في مطار هيثرو بلندن.

المطر والضوء الرمادي يثيران غضبه، ناهيك عن الضباب الذي يجعله محتجزا في الشقة. أبجد لا يتغير. مزاجه مركب من الحرارة والهواء الجاف، أما رائحة المطر والتراب والأشجار فهي تثير حساسية جهازه التنفسي. يتعطل أنفه وتتحرك رواكد الحزن والخوف في أعماقه. بالنهاية يصاب باكتئاب لا يخرج منه إلا بمعجزة أشعة الشمس حين تلسعه. أين هو من شمس غمسيس؟ تلك رفاهية فرّط فيها بجهل. لندن وأجواءها تثير جنونه الذي لا يهدأ، كلما زاد حاله تعقيدا إلا وسأل نفسه مرارا وتكرارا، ماذا أفعل هنا؟ ثم ينخرط في سباب لا يتوقف. اليوم مطلوب منه أن يقابل وكيل شركة تصنع لعب الأطفال. أبجد لا يفهم شيئا في التجارة، لماذا يجبرونه على فعل أشياء بعيدة عن اهتماماته؟ أطل عبر زجاج النافذة. المطر لا يتوقف والسحاب

الكثيف حوّل النهار إلى ليل. أجبره رفيقه في الشقة على التأهب للخروج بعد أن صوب إلى رأسه فوهة مسدس يلازمه طوال الوقت. وضع أمامه حيزا زمنيا محددا بساعتين لينجز المهة ويعود ليسلمه الوثائق. خرج أبجد صاغرا. أمسك بمظلة تدرأ عنه ماء المطر، وذهنه يفكر بلا توقف، يبحث عن خلاص من الوضع الذي وجد نفسه فيه.

كان أبجد يظن أنه سيذوب في باريس، لا أحد سيقتفي أثره أو يفكر في إيجاده طالما أنه لم يخبر أحدا بمكانه. لكن شغفه بالكتابة وولعه الصحفي جعله يقترف خطأ قاتلا. فبعد إلحاح زميل صحفي عبر البريد الإلكتروني مرات كثيرة، كتب أبجد مقالا سياسيا يحلل فيها الوضع المتأزم في البلد وتأثير ذلك على المجتمع خاصة مع تزايد وتيرة الصدام والعنف بين بعض الأطياف السياسية. لا يدري تلك الجملة اللعينة كيف لم ينتبه لها، حيث ضرب مثلا بالأحزاب السياسة الفرنسية وأنشطتها بمركزيات باريس وتفاصيل دقيقة أخرى لها لا يعرفها سوى المتواجد بالقرب منها في ذات الحاضرة. حتى الأحمق سيفهم أنه في باريس. أي لعبة مجنونة هذه التي انخرط فيها أبجد؟ لا يدرس أية نهاية تنتظره. لم يكن متفائلا أبدا. أحسّ أنه هذه المرة قد ضُيق الخناق عليه بلا رحمة وستُجتث أنفاسه حينما يحين الوقت المناسب.

جلس أبجد في مقهي بشارع صغير جانبي. وبمجرد أن طلب قهوته وصل وكيل الشركة. كان يرتدي نظارات شمسية فاحمة عريضة غطت معظم تقاسيم وجهه. جلس قبالته وبحركات بطيئة أخرج

من تحت معطفه ملفا وضعه ناحية أبجد وقدم له قلما. لكن أبجد طلب الاطلاع على فحوى الملف. الوكيل رفض، وأزاح معطفه قليلا عن جانبه الأيسر يريه المسدس المخفي هناك. على غير عادته خاف أبجد ووقّع مباشرة على الأوراق. ثم وضع القلم بخبطة على الطاولة بينما يعض ويضغط أسنانه من الغيظ. لا شيء يهزمه فلماذا الآن هو كالفأر الصغير الواقع في مصيدة ولا يعرف كيف يهرب؟ لم يشعر بوكيل الشركة يغادر وابتسامة عريضة تتوسط وجهه. غرق أبجد في سواد قهوته وحين انتبه للوقت أدرك أن المهلة قد أشرفت على الانتهاء. ترك ثمن القهوة على الطاولة وغادر على عجل. أوقف سيارة أجرة وانطلق إلى الشقة. وجد الرجل المكلف بحراسته ينتظره في غرفة المعيشة وابتسامته الساخرة لا تكاد تغادر وجهه. تقدم أبجد ناحيته ببطء، ثم تجاوزه متجاهلا إلى الكنبة الأبعد وانهار عليها. كان يريد النوم. غير أن يدا ربتت على كتفه نبهته وأعادته إلى ما هو فيه. بينما وجه صاحبه يطل عليه من فوق بابتسامته الساخرة ويومئ إليه أن انهض ويده اليسرى تلاعب المسدس بمهارة، نهض أبجد وتبع حارسه ناحية الغرفة الوحيدة في الشقة. توقف الرجل في الباب بينما ترك حيزا له ليدخل. وجد فوق السرير حقيبة صغيرة مجهزة وفوقها استقر جوازه وورقة مطوية بداخله. قال الرجل بنبرة باردة لا روح فيها: "الباخرة تغادر خلال ساعة أو أقل. هيا اسرع لتصل في الموعد، ستصاحب الشحنة التي وقعّتَ عليها!". المفاجأة جمدت أبجد في مكانه، ما جعل الرجل يحمل الحقيبة ويدفعه ناحية باب الخروج ويصرخ فيه طلبا للسرعة.

أي متاهة وقعت داخلها يا أبجد! أيعقل بعد هروبك من غمسيس تعود إليها قسرا؟ الإجبار يكسر حرية الاختيار ويضع طريقا واحدة، وعليك المضي فيها حيث لا يسمح لك البتة بالتساؤل عن الوجهة والعواقب، فتلك أمور تتجاوزك. أهكذا بات حالك أيها الأبجد وأنت المتمرد الذي لا يرضخ؟ الثور الذي يهجم على حامل الراية الحمراء وحين يبدأ يفتك به تُوجه إليه عشرات الخناجر ليسقط منهزما؟ بلا شك أنت ذلك الثور يا أبجد وقد سقط سقطته الأخيرة التي لن ينهض بعدها. يستطيعون فعل أي شيء طالما وجدوني بعد يوم واحد من نشر المقال. تلك الثقة التي جعلتهم يأتون إلى شقة نور دون أدنى شك أو خوف، بنفس تلك الثقة يجهزون نهايتي. لكن كيف ستكون؟ أعرف شراسة محاسن وقسوة رجالها. هي لن تغفر لي خيانتها وعدم قبولي بالعمل معها. تلك الملعونة أي قدر وضعها في طريقي. كيف أتخلص من لعنتها؟ يدي مكبلتان لا أعرف ماذا أفعل. بدا البحر أسود والأمواج تتلاطم. وأبجد يستند إلى الحاجز المعدني ويتحدث في سره ويفكر دون أن يجد حلا. الباخرة العملاقة تتقدم ببطء والليل جيشه يزحف بسرعة.

لم يشعر بالرجل الذي يقف مثل وقفته وتفصلهما عدة أمتار. استدار أبجد ليدخل القمرة الحديدية التي تتوسط الباخرة حيث توجد غرفته. فإذا بالرجل يبادره بالسؤال

-هل تم ترحيلك؟

- (بعد صمت وتردد) لا، بل عائد بعد غياب.

-لماذا تعود في هذه الباخرة، إنها باخرة شحن تجارية لا حيز للركاب فيها ولا أراك عاملا ضمن طاقمها؟

أحس أبجد أن الرجل توغل بعيدا في خصوصياته. فتحرك يريد الدخول إلى غرفته. لكن الرجل سبقه بالاقتراب واستوقفه من مرفقه.

-يقال أن حمولة هذه الباخرة كلها من السلاح والذخيرة.

-لا علم لي. قالها أبجد بتجهم وحاول الذهاب لكن الرجل استوقفه ثانية.

-أعلم أنك ترافق شحنة لابأس بها وستنزل في غمسيس، أتريد قتل أبناء جلدتك بهذا السلاح؟ لقد بدوت لي رجلا متمردا تلوح بوادر الثورة عليك.

-أنا أوصل شحنة لعب أطفال لا غير. قالها أبجد مجبرا يكذّب الرجل الذي يقحم نفسه في أمور الغير.

-سترى أن ذلك غير صحيح. شحنة لعب أطفال لا تحتاج حارسا، ولا العائد من غربته إلى وطنه يحتاج العودة في هكذا باخرة!

لم يحر أبجد جوابا. بل أكمل الرجل كلامه ليسلبه آخر ذرات السلام داخله:

-أنصحك برمي نفسك في هذا الماء قبل أن تصل غمسيس.

قالها ثم ضحك عاليا وغادر إلى الداخل، وقد أذهلته لهجة الرجل كأنه ينحدر من أهل غمسيس أو أحد قاطنيها سنين طويلة.

جثمت على صدر أبجد هموم طارئة بسبب ما سمعه من الرجل. زادت حدتها الأمواج المتلاطمة على جوانب الباخرة فتصدر صوتا موحشا يبعث الخوف. أسرع أبجد يدخل إلى غرفته التي خصصت له حتى لا يموت وحيدا على ظهر الباخرة بسكتة قلبية. بل كادت السكتة القلبية تصيبه فعلا حين وجد ذات الرجل شريكه في الغرفة والذي طالعه بابتسامة ساخرة تحمل الكثير من المعنى.

ران الصمت والتفكير على أبجد. تحول إلى تمثال جامد. بينما شريكه في الغرفة مستلق بلا مبالاة، لا يحرك طرفه عن السقف. لمعت سبع كلمات في ذهنه. تومض حمراء كإنذار ينبئ بانفجار قنبلة: غمسيس سلاح محاسن تهريب لعب أطفال. تيقظت مهارته في التحليل وبدأ يربط الأحداث. محاسن هي الطرف الوحيد الذي لم يتخل عن مطاردته. المرأة عنصر قائد في تنظيمها، حاولت تطويعه تدجينه حتى يعمل لصالحها. لكن أبجد كان صلبا ولم ينحني. حبه لحريته وانطلاقه أكبر من أي عرض مادي يمكن أن يغريه. خياناته لها ومراوغاته حيث أوهمها مرات عديدة أنه ينجز لها أمرا طارئا طلبته منه. كان يتظاهر بالقبول ويقوم بعكس ما طلبته وتسبب لها في خسارات كبيرة.

أبجد رغم كل عيوبه لا يبيع الوطن ولا الصاحب إلا إذا كان بائعا هو الآخر. لا يدري إلى الآن كيف تورط مع محاسن. هو متأكد أنها استقطبته على طريقتهم. أرادت توريطه بكل ما أوتيت من إغراءات، ولقد سقط سقطات صغيرة لكنه خرج منها بأبسط الخسائر وحين تأكد أن كل نشاطات محاسن غير قانونية حاول التملص والابتعاد عنها تماما. لكنها لم تقبل بذلك وبقيت تطارده من مكان إلى آخر. إلى متى ستخطئه ضربات الموت؟ لديه شعور أن هذه المرة الضربة التي ستصيبه ستكون قاصمة.

تنحنح شريكه في الغرفة فعاد إلى النقطة التي انطلقت منها أفكاره الهائمة. بات متأكدا أن هذا الدخيل رجل من رجال محاسن يراقبه ويرافقه حتى يصل ليقدمه فأرا في مصيدة لمحاسن. يجب أن يجد حلا قبل الوصول. الرحلة تستغرق أربعة أيام وعلى ضوء تلك الفسحة الزمنية يجب أن يتحرك. وصلهم نداء يدعوهم إلى تناول طعام العشاء. لم يرغب أبجد في الذهاب فهو منشغل الفكر ولا يشعر بأي جوع. لكن ذاك المرافق لم يترك له مجالا بالبقاء بل أصر عليه أن يذهبا معا. كان يقصد أن لا يغيب عن ناظريه. مضى يتبعه، حتى وصلا إلى مطعم صغير بالكاد يسعهما مع عشرة عمال مع طاقم قيادة السفينة والممرض المسعف، لكن لم يحضر الجميع، سيأكلون بالتناوب حتى تكون أمور الباخرة متناسقة ولا يحدث أي خلل. المراقبة والانتباه للشحنة ومستوى المياه وحركات المراوح وهدير المحركات كلها أمور يجب الانتباه إليها على الدوام وبكل تيقظ. عمل أبجد لسنوات في الميناء وقربه من التجار وأصحاب

البواخر جعله يعرف الكثير من التفاصيل. لم يشعر بالغبطة لتحمله السفر في هكذا باخرة، كان همه منحصرا في إيجاد منفذ ولو صغير يخرجه من المتاهة التي وقع فيها قبل الوصول إلى ميناء غمسيس.

جلس إلى الطاولة فجلس مرافقه قبالته مباشرة. وبفجاجة نظر إليه وقال: "تبدو مهموما. اقفز في البحر لتنجو من ورطتك! كُلْ أولا، سيعجبك الطعام، قد لا تجد طعاما في الماء، والسمك نيئ هناك". وقهقه عاليا. انكفأ أبجد على نفسه. وضع بصره داخل الطبق الذي قدمه الطباخ بابتسامة وِدّ. وتظاهر بالانغماس في الأكل. لينهض بعد لقيمات قليلة. حمل أبجد طبقه وقصد المطبخ. التمس من الطباخ بكل رجاء أن يضع كمية سخية من الهريسة الحارة أو دبس الفلفل الحار. إدعى أنه لا يستطيع الأكل إلا حين تلسعه حرارة الفلفل. لبّى الطباخ طلبه بمرح ووضع له ثلاث ملاعق كبيرة من الهريسة الحارة وأضاف قليلا من المرق. حرك أبجد ما في الصحن حتى توزعت الهريسة ولم تعد تلفت النظر. عاد أبجد إلى مكانه قبالة الرفيق الكريه. وبثقة أمسك الملعقة وطفق يأكل طعامه دون خبز حتى أتى على ما في الطبق كله. ثم شرب كأس ماء ليضمن حسن اشتعال حرارة الفلفل ببطنه. منذ زمن نبهه الطبيب بعدم أكل الطعام الحار بسبب تقرحات في معدته والتي تنبئ بخطر داهم على صحته إن لم يفعل. أشهر طويلة وهو يتوخى الحذر ويحاول المداومة على أكل صحي حسب توجيهات الطبيب. هو الآن يعرف الخطر الذي ستتسبب فيه الهريسة الحارة ولكن لا خيار آخر أمامه. لن

يسمح للرجل الذي يراقبه أن يرميه في البحر أو يقدمه أسيرا لتلك العصابة. سيتصرف حسب ما يسمح به الظرف. دعاه رفيقه بالإكراه إلى الذهاب إلى المشرب لاحتساء القهوة فوافق دون تردد. سيهادنه حتى يحين الوقت. وكما في المطعم جلس مباشرة أمامه. حدق فيه بوقاحة وابتسامة ساخرة تزحف على شفتيه، يطردها سريعا. ينصحه: "يجب أن تجد حلا، القفز في البحر أفضل من الإعدام بتهمة إدخال السلاح للبلاد، وتحريض الناس على الاقتتال". ردَّ أبجد ببطء وبرود تام كأن الأمر لا يعنيه: "إنها شحنة لعب أطفال!". وقام ليغادر المكان. لكنه سقط يتلوى أرضا بسبب الألم الذي انصب في معدته كسكاكين تخدشها ببطء. تفاجأ الرجل الذي يراقبه ولم يدر ما يفعل، انحنى يسأله عما به دون أن يجد جوابا. أسرع النادل يعاين أبجد، ليعود ويتصل على عجل من هاتف داخلي بالممرض المسعف المتواجد على سطح الباخرة.

"طالما أن معدتك مهترئة بسبب القروح، لماذا تأكل الأكل الحار؟". تساءل الممرض وهو يساعد أبجد على العودة إلى الاستلقاء على السرير الطبي في حجرة التمريض بعد أن استفرغ كل ما في جوفه. وعاود وصل الأمصال إلى شرايينه. تجاهل أبجد السؤال وطلب من الممرض أن يمكنه من الحاسوب ليرسل رسالة إلكترونية ضرورية وعاجلة. نصحه الممرض بالاستلقاء والراحة حتى يتحسن. لكن أبجد أصرّ وألح في طلبه حتى رضخ الممرض حيث جلب له الحاسوب ووضعه أمامه بعد أن ساعده على الجلوس. كتب رسالة تحتوي كل التفاصيل والأحداث والاستنتاجات. أرسلها إلى عنوان شخص واحد لا ينساه أبدا: نور.

الثالث والعشرون

وحيدة في غابة الحكايا: فلاش فيكشن..

جلست رقية بمفردها في الحديقة، تراقب سقوط الأوراق من الأشجار. كان يوما خريفيا جميلا، لكنها لم تستطع تقديره. كان قلبها مثقلًا. وامتلأ عقلها بأفكار الحب الذي فقدته دون سابق إنذار.

كانت تعتقد أنه من المفترض أن يظلا معا إلى الأبد، لكنه تركها بعد ذلك دون أن ينبس ببنت شفة. حاولت التواصل معه، لكنه تجاهل جميع مكالماتها ورسائلها وتوسلاتها.

وبينما كانت جالسة هناك، تائهة في أفكارها، رأت محاسن صحبة شابين يمشيان جنبها، ويمسكان بكلتا ذراعيها بحنو بالغ. بدوا سعداء للغاية وفي حالة حب، ولم تستطع إلا أن تشعر بآلام الغيرة، فلربما خيل إليها إن أبجد يكون أحدهما، لكن من هو الشخص الآخر الذي معه؟

تساءلت كيف سيكون شكل وجود شخص يحبها بجنون هكذا مرة أخرى؟ شخص يمسك بيدها ويخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام، حتى في أحلك الأيام؟

لكنها أدركت بعد ذلك شيئا: لم تكن بحاجة إلى شخص آخر لإسعادها. كان لديها القدرة على أن تجد السعادة داخل نفسها. ولأول مرة كانت رقية تختبر هذا الشعور الجديد عليها حتى وإن تأكدت إن أبجد ليس أحد الثلاثة، فقد اختفى فجأة، واختفت بعده نور، واختفت محاسن، واختفى أنيس، واختفت الشياطين كلها هكذا فجأة لتغدو وحيدة مهجورة متروكة باردة الجسد والفراش والليالي.

وقفت وأخذت نفسا عميقا وخرجت من الحديقة ورأسها مرفوع كما يحصل في بعض المسلسلات التجارية. كانت مصممة على خلق حياة جديدة لنفسها، حياة مليئة بالحب والفرح واكتشاف الذات.

نعم، كان فقدان الحب مؤلما، لكنه علمها أيضا درسا مهما. النسيان. كانت قوية، ويمكنها التغلب على أي شيء أطلقته الحياة في طريقها.

عندما كانت تسير في شوارع المدينة المزدحمة، أدركت فجأة أنها لا تعرف إلى أين عليها أن تذهب. كانت قد اتخذت منحى خاطئا وشعرت الآن بالضياع التام. تسارعت ضربات قلبها وأصبحت راحتاها تتعرقان بينما كانت تبحث بشكل محموم عن مَعْلم مألوف أو علامة دالة. لكن كل مبنى، كل ركن من أركان الشارع بدا متشابهًا. فقط عندما كانت على وشك أن تفقد الأمل، لاحظت خيال شخص غريب ينكث بعصا الأيام حزنها ويعرض عليها أن يرشدها إلى وجهتها الصحيحة. لم تستطع رقية أن

تشكر الشبح بما يكفي لمساعدته على مزيد التواصل معها، وشعرت بالارتياح والامتنان لأنها وصلت بأمان إلى وجهتها.

بعيداً عن الأرضِ والبيوتِ الخفيضةِ
أغرقتْني الغربةُ في بحرِ الهيجانِ
حيثُ الأزرقُ يغدو مضمحلا
والأحمرُ يفاجأُ بقُرب نسيمِ السفرِ
فطوفتُ بين حكايا الأطلالِ والأوديةِ
ورأيت مناظرِ الهلالِ في أرجوحة
الخيال كصمتٍ يصيح أين نورُ حياتي
وجناحا أملٍ طيار؟
في عالم من التلميحات والأوهام
حيث يتلاشى الواقع إلى ارتباك
يصبح الاغتراب هو الحل الوحيد
طريقة للتعامل مع خيبة المسعى
فالنجومُ تتعبُ كلما اقتربتُ منها
والأشجارُ تذرفُ ندباتِ الخَرِيفِ
وتذكّرُ الفينةُ الفينةَ من الأحزانِ والأسى
خلال السفرِ أرقصُ بنزوةِ الحيوانِ
وأرددُ والفراغُ يهزني بطيشٍ
مرحبا بيَ وأهلاً في أرضٍ غريبة
ويا حقولُ الأماني كيفَ الرجوعُ؟
فالخطوات تتلاشى كلما جسدتُها

والأحلام تفنى كانزواء الضوء عند المغيب
فأين خريفُ العمر المفقود فِي الأدغالِ؟
فليحيا الأرق ولتهدأ حياتي التي
ليست سوى الهدوء مشوباً بالأحزان.

أليست هذه قصيدتك وقد تطاير شذاها في الفضاء؟ أبجد، أنت كما وعدتني، ترعى جسدي وتنمي روحي وتعبد لي طريقي وتقرأ لي شعرك في كل آن ومكان. لم أقل لك ولا مرة إنني أحبك، لكنك دوما معي، حتى وإن اختلفنا أو افترقنا أو تخاصمنا أو تذابحنا. ملاكي الحارس المعتني بي أنت، من قبل أن أولد، وحتى بعد فوات لحظة السفر الطويل.

الرابع والعشرون

وأخيرا تزوجتُ

– إذا رأيتك تقرئين تلك المجلات، سأضربك!.

أصبحت الإهانات زادي اليومي، وكان سوء معاملتي من دواعي سروره. كان فقيرا في شخصه وغنيا في جيبه. زوجتني أمي له عنوة، وظنت أنني دست الجنة بقدمي، ولم تكن تعلم أنها باعتني مقابل مهري المُجحِف.

– هل تعتقدين أنك غالية الثمن؟ أنت لا تساوين أكثر من حذائك، واذا لم ترعوي فإنني سأعيدك إلى حيثما كنت!.

كل يوم أنتظر منه تنفيذ تهديده لي. وكل يوم تنتظر أمي أن أعلن لها خبر الحمل بطفلي الأول. بينما لم يعد خافيا على أحد إن زوجي اللئيم يتقلب في أفرشة العاهرات.

مستقبلي يبدو قاتما.

ليس ثمة أمل.

لا يوجد مصير!

— If I see you reading the newspapers, I will hit you.!

Insults became my daily supplement, and my mistreatment was his pleasure. He was poor in character and rich in pockets. My mother married me, and she thought that I had

trampled on heaven with my feet, and she did not know that she had sold me in exchange for my sick dowry.

— Do you think you are expensive? You are not worth more than your shoes, you will go back to where you came from!

Every day I wait for him to carry out his threat to me, and every day my mother waits for me to announce to her the pregnancy of my first child. And it is no longer a secret that my mean husband is turning around in the beds of prostitutes.

My future looks bleak, there is no hope, there is no fate!

الخامس والعشرون

المسائر والمصائر

غمسيس أيتها المدينة التي لا تتخلى عن عاداتها ولا عن ملامحها الراسخة بالبحر والصحراء، غمسيس مدينة تلهو بضجر سكانها، وتتسلى بجرائم مهربيها وبعض الدخلاء عليها من المناطق البعيدة. لكنها تبقى ملاذا، تفتح ذراعيها لمن خلفتهم الخيانات وكسرهم الإهمال. تساعدهم على الإيغال في الوحدة والشفاء الذاتي حيث تلتئم الجروح ويُنسى مسببها وتعود الحياة بنسق آخر ونفس جديد. وذاك حال نور، إذا أجزمت أن لا حظّ لها في الحياة الهانئة ولا الحب المستقر بعد اختفاء أبجد. شهور طويلة شديدة الوطأة أمضتها وحيدة في شقتها. لا تلتقي أحدا ولا تخرج إلا للضرورة، وإن حدث وخرجت لجلب غرض تحتاجه فإنها تتنكر وتغطي وجهها بنظارات عريضة. تخرج لتقضي شأنها بسرعة وتعود إلى ما كانت عليه. من جميل الأمور أنها تمتلك في شقتها مكتبة تحتوي مئات الكتب. وهكذا انغمست فيها، إذ لم تنتظر أن تدخل في اكتئاب خطير يلزمها بتناول مهدئات وأدوية عصبية تجعلها في خانة المرضى. ساعدتها الكتب وهدوء نسق الحياة في غمسيس على الابتعاد عن كل المثيرات والمشاكل، فتعافت ولو ببطء. كان دواؤها

جرعات ثقيلة من القراءات والسفر إلى عوالم مختلفة. وتناقص حضور أبجد في ذهنها رغم الأثاث الذي يذكرها به. فقد كان له حضور في كل ركن من شقتها. ضحكاته الساخرة من كل شيء، نقاشاته العميقة في السياسة والثورة وما يستجد من أحداث، مغازلاته لها ومدحه لأكلها، تلخيصه للكتب وآراؤه في آخر الإصدارات، وحتى لقاءاته مع بعض المبدعين والمثقفين القادمين من الشمال كانت تتم في شقتها. تاريخ طويل كتبته مع أبجد لكنها محت سطوته عليها وغدا كل شيء مركون في صندوق الذكريات، ذكريات لا غير. لن تترك فرصة لما مضى أن ينهشها. لن تترك الفراغ يربطها بحبل ويدليها في بركة الماضي ليلهو بها. هي تملك من القوة ما يجعلها تبدأ حياة جديدة بعيدة عن الخطر.

الشمس حين تلزم نفسها بالإشراق المتجدد تنحدر إلى المغيب كل مساء لتشرق من جديد. وهكذا أشرقت نور، وأضاءت من حولها. ها هي اليوم ترتدي مريلة بيضاء وتتوسط مجموعة من الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة. وتبتسم ابتسامة عريضة تترجم كم المحبة والسلام بداخلها. بصبر وأناة تعلمهم كيف يعتمدون على أنفسهم، تساعدهم على نطق الكلمات صحيحة وكاملة، تكتشف مكامن الإبداع لديهم لتخطط عمل فني معهم، وتفيض عليهم من حنانها بلا حدود. أن تكون إنسانا يعني أن تكون رحيما على من هو أضعف منك. ذابت كل نقط الشر وتلاشت من قلبها بغياب المؤثرات السلبية. لا شيء يعكر صفوها. أصبح لديها روتين يومي يتوزع بين العمل في مركز

تأهيل ذوي الاحتياجات الخاصة والكتابة. فقد بدأت منذ فترة بالتدوين . كان لا بد أن لا يبقى داخلها شيء من السواد داخلها. فكانت الكتابة خير سبيل . وساعدها شغفها بالقراءة على ذلك. الأنسان لا ينتصر على نفسه إلا بالإنسان بداخله غير ذلك يصبح مجرد بشر يتقاتل ليغلب الضعيف ويستمر هو في العيش.

بينما نور منهمكة في عملها، محدثة بعض الصخب المحفز على تفاعل منظوريها. طلبها مدير المركز إلى اجتماع طارئ. دلفت إلى مكتبه لتجده يتبادل أطراف الحديث مع رجل تجلس على ركبتيه طفلة صغيرة شقراء بيضاء البشرة، وتشبهه حد التطابق، لا تتوقف عن الابتسام ومسك أصابعه. وبين الفينة والأخرى تطلق أصواتا غير مفهومة وتشير ناحية النافذة. بسرعة عرفت نور أن البنية تشكو من ضمور الأطراف ونمو غير مكتمل. بدت هشة كثيرا ومجرد نسمة صغيرة تمر بها تجرح بشرتها الرقيقة. عرّفها المدير على الرجل، فهو والد الطفلة، جلبها إلى المركز لإدماجها والاعتناء بها. تساءلت نور عن السبب الذي جعل أم هذه الطفلة تتخلف عن مرافقتها ، غير أن الوالد سرعان ما قال: للأسف ليس هناك من شخص يرعاها فقد تطلقت أنا وأمها، وبسبب زواجها مرة أخرى جعلت البنت في مسؤوليتي. أنا أعمل بفرنسا وقدمت طلبا للحصول على موافقات لترافقني إلى هناك لكن إلى الآن لم يحصل ذلك. أنا مضطر للبقاء هنا حتى أحصل على التأشيرة والموافقات الطبية. بانتظار ذلك وددت أن تلتحق بهذا المركز حتى تتعلم الأساسيات الحياتية. ومد بملف إلى المدير، حيث تصفحه ثم

حوله إلى نور. قرأت بيانات الطفلة. ذهلت حين رأت أن عمرها خمس سنوات. سألت الأب إن كانت قد التحقت بأحد المراكز من قبل. نفى ذهابها إلى من المراكز بسبب أن والدتها ترفض أن يرى أحد الطفلة. وكلما تناقشا حول مصيرها ومستقبلها يطلب منها ترسيمها في إحدى المؤسسات الراعية فترفض بشدة. ببساطة كانت تخجل منها. ويوم أودعتها له لتكون في كفالته أوصته بألا يجعلها تراها ثانية. تألمت نور من وضع البنية وهالها أن تتخلى الأم عن فلذة كبدها. العالم لا يخلو من الشرور والناس لن تصبح كلها ملائكة في يوم واحد. قدمت نور للأب لائحة من الأغراض لتوفيرها، ثم حملت الطفلة وعادت إلى القسم. طلبت من باقي الأطفال التصفيق ترحيبا فصفقوا وأطلقوا ضحكات وتمتمات كل حسب مقدرته على النطق. فطفقت البنية تضحك وتصفق مثلهم. هي أيضا كان اسمها نور.

عادت نور إلى البيت مثقلة بقصة نور الوافدة الجديدة على المركز. كلما حاولت صرف أفكارها إلى ناحية أخرى إلا وتجد نفسها بعد ثوان قليلة تفكر فيها بقوة أكثر. من أجلها اتصلت بأخيها الطبيب، له الكثير من العلاقات التي ربما تستطيع مساعدة نور الصغيرة. طلبت منه التدخل العاجل لصالحها، حتى تستطيع السفر مع والدها، ولمَ لا، فقد يتحسن وضعها الصحي قليلا. لم تنم إلا بعد أن حصلت على عهد من أخيها أن يفعل ذلك على جناح السرعة.

المتفق عليه حين تقترب الباخرة من الميناء، أن يرمي المشبوه نفسه في الماء بعد أن يكون قد تخلص من أبجد إلى الأبد. وسيرفعه من الماء قارب أحد الصيادين لينزله بعيدا عن الميناء. ويأتي رجال محاسن لتفريغ الشحنة تحت ستار الظلام، وتحويلها إلى المخازن بسرعة مع تواطئ عناصر الجمارك المداومين في المناوبة الليلية. وإذا ما تم طلب أبجد باعتباره المسؤول الوحيد عن الشحنة، إجابة واحدة يقولها الكل هي أنه سيصل بعد يوم بالطائرة.

مساء خريفي داكن ينبئ بهطول الأمطار على غمسيس. وفي الأفق القريب حيث يمكن رؤية باخرة شحن كبيرة تتقدم على مهل باتجاه الميناء. ومن المكان المخصص لرسو قوارب الصيد، تسلل قارب باتجاهها. الليل لا يتردد في سحب برنسه الأسود على المكان، بل يفعل ذلك بسرعة. لا أحد سيكشف القصة. وكل متواطئ مطالب بالصمت بعد أن قبض حصته من المال. للقارئ أن يخمن أن ذلك لم يتم عكس هؤلاء المشاركين في الخطة. أبجد أفسد خطتهم. لقد فاقهم في التحليل واللعب الذكي رغم بطئه. إذا لم يمت أبجد، لم يقفز في البحر كما طلب منه العنصر المشبوه . مع اقتراب الباخرة من غمسيس استطاع إقناع قبطان السفينة أنه لا علاقة له بالشحنة بل أُجبر على التوقيع وأن الشحنة هي كميات من الأسلحة ستدخل البلد في دوامة من العنف. سيسلم نفسه لقوات الأمن ليثبت صدق كلامه. وبقي ملازما للقبطان في قمرة القيادة حتى لا يصل إليه الرجل الظل ويلقيه في البحر أو

يقتله برصاصة من كاتم صوت. على مسافة خلف الباخرة يسير مركب تخفت داخله مجموعة عناصر من الجيش. وبمجرد أن رصدوا العنصر المشبوه يقفز في الماء أسرعوا يمسكون به قبل أن يبلغه قارب الصيد. بقي المركب يتبع الباخرة حتى وصلت الميناء وقد انتصف الليل. قوات أمنية كثيرة طوقت المكان. واحتجزت كل من سارع بالصعود إلى الباخرة. الكل متورط والتحقيق سيشمل الكل. ثم أُقتيد أبجد إلى سيارة غير التي أُركب فيها العنصر المشبوه، وغادرا بصحبة الأمنيين بينما حراسة مشددة ضربت على الباخرة.

....

رقية لم تمت في حادث السيارة. لقد نجت بأعجوبة. ها هي تفتح البث المباشر ولن تتحدث عن كتاب جديد، بل عن نفسها وهي داخل كتاب، كشخصية حركت خيوط الأحداث.
تذكرون أن الأستاذ أبجد تركني لفترة أعيش مع عائلة العم أيال اليهودي. قرابة الشهر وأنا أختبئ عندهم. كنت منغمسة في القراءة وحين أرتاح كنت أفكر في أبجد وأي مصير ينتظرني. موت أنيس فتح أبوابا كثيرة كانت مغلقة، انكشف نشاطه السري. وحتى أن وجودي في حياته كل ذلك الزمن كان برضا من قادة التنظيم لقد وجدوا كبش فداء ساذجا وسيقع في الفخ مباشرة. لا أعرف نوعية التنظيم الذي كان ينتمي إليه أنيس. لكنني متأكدة أنه متورط في شيء كبير. ما الذي أجبر أنيس على الانتساب إليه؟ أم قد وقع غسيل دماغه يا ترى؟ حقيقة، لا أعرف بالضبط.

جاء أبجد لزيارتي في منزل العم أيال. جلب لي ملابس رجالية وشارب اصطناعي. طلب مني حلق رأسي وارتداء الثياب الواسعة. سأتنكر في هيأة رجل. ساعدتني ابنة العم أيال وأعطتني مشدا ضاغطا ساعدني على التخفي أكثر. ارتديته على صدري فانمسح وتسطح كأنه غير موجود. جمعت أغراض قليلة في حقيبة ظهر. ودعت عائلة العم أيال ورافقت أبجد. الليلة ظلماء ومعظم فوانيس الشارع معطوبة. الوقت متأخر ومعظم العوائل أطفأت أنوار بيوتها. سرنا طويلا في الشوارع والانهج المظلمة. كنا نتجه غربا عكس البحر، عند آخر البيوت في الجهة الغربية المنفتحة على الفراغ والصحراء توقفنا. أصدر أبجد إشارة ضوئية من مصباح يدوي صغير. فبادلته سيارة مركونة غير بعيد الإشارة. فتقدمنا بأمان. سلمني أبجد لمهرب يعرف مسارب الصحراء سيوصلني إلى عائلة بدوية تعيش على التخوم الحدودية. كان معي بالسيارة أربعة أشخاص كهل وثلاثة شبان. الرفقة دائما مطمئنة ما دمت لا أفتح فمي إلا لشرب الماء أو الأكل. قبل صعودي إلى السيارة حاولت محاولتي الأخيرة. أعدت على مسامع أبجد نفس كلام حبي له ورغبتي في أن أكون معه. عرضت عليه عبور البحر بصحبته. كنت أعرف أنه سيسافر عبر البحر خلسة. لكنه رفض وقال الحب في هذه المرحلة قيد قاتل، هيا اذهبي واصنعي مصيرا جميلا يليق بحبك للحياة. كان قمة في الصرامة وكنت قمة في الرجاء. يا للأسف لم أحصل على ما أرغبه أبدا. وكما دخلت مدينة غمسيس ذات ليلة قسرا، غادرتها تلك الليلة قسرا أيضا وقد ختمت بالشمع على قلبي. صعدت

السيارة بعد أن ودعت أبجد. كنت أعرف أنه لا لقاء لنا بعد ذلك. صعدت السيارة وركزت تفكيري على نقطة واحدة. الحياة الجديدة. انطلقت السيارة بنا تقطع صمت الليل وسكون الصحراء. السائق متهور يقود المركبة بسرعة جنونية. وكان قد تعمد عدم إشعال أضوائها حتى لا تنتبه قوات الأمن وتطاردنا. للأسف الشديد لم يتبين الطريق جيدا مع سرعته المفرطة تلك فتهاوت بنا السيارة في عمق الوادي. نجا المهرب. رأيته قبل دخولي في غيبوبة يركل باب السيارة حتى انفتح. انزلق خارج السيارة وغاب في الظلام. تركنا خلفه دون أن يقرصه أدنى سؤال أأحياء نحن أم أموات؟ لا أدري كم من الوقت ظللت في غيبوبتي تلك. أفقت على صيحات فرحة بأنني أخيرا فتحت عيناي. تأملت وجوها ثلاثة سمراء كالحة تطل علي من أعلى. ثم غبت من جديد عن الوعي. حين أفقت ثانية وجدتني أنام في سرير طبي في المستشفى وأطرافي داخل لفافات من الجبس معلقة إلى محامل تتدلى من السقف. أردت التململ قليلا في مكاني فلم أستطع. ضغطت الزر بجانبي. جاءت الممرضة مسرعة. سألتها عما حدث لي وعن باقي رفاقي. قالت باقتضاب، أن رعاة عثروا على سيارتنا ببطن الوادي وكنت الوحيدة على قيد الحياة. أسعفوني وشدوني إلى أحمال فوق جمل وجلبوني إلى المستشفى وغادروا مع سيارات إسعاف لسحب الجثث من الوادي. كاد الحزن أن يعصف بي. المصائب تلاحقني بلا توقف. أي مصير ينتظرني. ظللت حبيسة المستشفى شهرا كاملا. حيث أخبرت الإطار الطبي أن لا أهل لي في غمسيس يتسلمونني لأتعافى عندهم. يوم قرر الطبيب نزع

اللفافات عن رجلي والدعائم الحديدية عن أسفل ظهري ساعدني لأقف، انتصبت قليلا ثم انتكست إلى أسفل، لأسقط متكومة على الأرض. من يومها لم أقف ثانية. لقد غدوت صاحبة إعاقة حركية في الأطراف السفلي.

شفقة الطبيب المعتني بي دفعته لأن يبحث عن زوجي وأهلي في القرية. للأسف رفضوا قبولي، وهددوه بقتلي إذا أعادني إليهم. فجزائي جراء هربي هو الرجم أو القتل ذبحا. في غمار نحيبي تذكرت مرة أن لأبجد أمّ تعيش وحيدة هنا في غمسيس، وقد زرتها مرة أنظف بيتها حين تغيبت معينتها لأيام. شحذت طاقتي الذهنية وبدأت تمارين التذكر. يجب أن أتذكر مكان بيتها. رجوت الطبيب أن يصطحبني ليلا حسب الخارطة التي ارتسمت في ذهني. ذهبنا إلى حيث توجد شقة أبجد، ثم سرنا إلى بيت نور، ومن بيت نور توجهنا غربا حيث يوجد الحي القديم والبيوت العتيقة الطراز، باتجاه "السبخة". التوينا مع الطريق الضيقة ثم توقفنا. البوابة مميزة تذكرتها مباشرة. أنزلني طبيبي ودق باب البيت. فتحت لنا الباب أم أبجد، الخالة وطفة. ملامحها تغيرت كثيرا. لقد عرفتها رغم أفاعيل الزمن وهجران ابنها أبجد العاق لها. تحدث إليها الطبيب ثم رجوتها أنا أن تقبل بي عندها. وعدتها بالاعتماد على نفسي وأن لا أكون عبئا عليها. من محاسن الأقدار أن أحد المجهولين سدد فاتورة إقامتي في المستشفى. أخمن أنه المهرب نفسه ليسكت إحساسه بالذنب لأنه تركنا نواجه مصير الموت واختفى. أم أبجد لم تكن كثيرة الكلام ، كانت منكفئة على نفسها بعد أن

تقضي شؤونها تجلس إلى نافذة من جهة الشرق وتنظر من زجاجها دون انقطاع كأنها تنتظر ابنها أبجد الذي لا يعود. تطور بها الأمر بعد ذلك إلى زهايمر انقض عليها فجأة. تنسى كل شيء عدا أمرا واحدا، كانت تنتظر ابنها الغائب عله يعود. مع الأيام تطور الأمر ولم تعد تترقبه عند النافذة كما قبل بل أصبحت تتنقل إلى الميناء. حيث تجلس هناك وتردد أغنية واحدة لا تملها لم أسمع بها من قبل. أصبحت أنا أرعاها وأطمئن لسلامتها ثم أنغمس في الكتابة. الطبيب ماجد أصبح صديقا مقربا لي. يزورني كل فترة ولا يتردد في القدوم كلما استدعت حالة الخالة وطفة ذلك. فقد أوجد لي عملا، محررة في مجلة أدبية أعمل معهم عن بعد من البيت بعد أن ساعدني واشترى لي حاسوبا مستعملا وربطني بالإنترنت. إتقاني لعملي جعلني أتميز سريعا وفتح لي المجال للتعاون مع العديد مع المواقع فتحسن وضعي المادي. رغم انشغالي فإن لي الوقت الكثير أمضيه، والملل يلوكني، فعزمت على قراري بالالتحاق بمركز لذوي الإعاقة. نعم. نعم. نور تعمل هناك، أعرف، لكنني أموه نفسي حتى لا تتعرف إلي، فهي أصلا لن يخطر ببالها أبدا أن أكون هناك. وحسب هيئتها وحالها حين تمر بالقرب من ورشتنا، فقد أسقطت كل الماضي من ذهنها. كم تبدو قوية وهي تجتاز أبجد وكل حواجز الماضي. لقد كانت شمسا جديدة تشرق في غمسيس.

يومها كان ما يزال على إقلاع الطائرة أكثر من ساعتين. لا أدري أي إلهام جعلني أفتح بريدي الإلكتروني القديم. كنت جالسة في صالة المسافرين، قرأت جزءا من رواية، تصفحت مواقع التواصل، لكن الملل لم يغادرني. أخرجت الحاسوب من حقيبته، وضعته على ركبتي، ودون وعي وجدتني أفتح بريدي القديم. رسالة وحيدة وصلت دون غيرها، منذ أيام وصلت حسب تاريخ ورودها. وكان مرسلها أبجد. هذا الرجل يصر على ملاعبتي كالعادة يأتي ويذهب حسب مزاجه القبيح ذاك. هذه المرة لن أهتم، لن أذهب إلى الوجع بإرادتي. بالعكس سأتجاهله. صحيح أنني نسيته منذ زمن. لأمضي إذن في النسيان، وبئسا للحب والخذلان والهوان. تأملت طويلا الشاشة ثم أغلقت بريدي الإلكتروني دون أن أفتح رسالة أبجد. وظبت الحاسوب في محفظته. ووضعت سماعات في أذني أستمع لأطلال أم كلثوم. غبت عن العالم مدة زمنية حتى شعرت بنكزات على كتفي. كانت امرأة مسافرة تدعوني للالتحاق بالطائرة. جلست في المقعد المجاور للنافذة. سرحت بصري بعيدا وتهت مجددا مع أغاني الطرب القديمة فهي تسحرني وتسلبني لبي. لأول مرة أصعد الطائرة وأنا لا أفكر في الآتي ولا في باريس ولا غمسيس التي أتركها مجددا بعد آلاف الوعود مني بعدم مغادرتها. للأسف، ها أنني أخلف وعدي وأتركها سعيا خلف نور الصغيرة. لا أدري ما الذي جذبني في تلك الطفلة لكن ما أعرفه أنني يجب أن أكون بجانبها دائما. أحيانا نقابل أشخاصا يغيرون حياتنا لدرجة أن نترك وراءنا كل شيء ونغادر. أنا أعرف أن الماضي إرث ثقيل لكن أحيانا

نستطيع التخفف منه عندما يوجد شخص قد شاركنا إحدى ردهاته. اكتشفت يوما أن رقية أصبحت مقعدة وتتحرك بكرسي لا تغادره. متابعتي لبعض المواقع الأدبية جعلتني أكتشف قلما غاية في الجمال يحمل اسما غريبا، رقيانيس. يكتب مقالات محفزة وقصص قصيرة ومرة كل أسبوع، جزء من رواية. من فرط إعجابي برقيانيس وبإبداعاته راسلت أحد المواقع الذي ينشر فيها مادته وطلبت منهم تمكيني من عنوانه لأجل إرسال هدية تعبر عن إعجابي وشراء كتبه إن كانت متاحة. في بادئ الأمر تجاهل المشرفون على الموقع طلبي ولكن مع إلحاحي الشديد ووعود بالدعم والاستشهار لديهم حصلت على العنوان. ولم يكن سوى عنوان المركز الراعي لذوي الاحتياجات الخصوصية الذي أعمل فيه. ولم أجد تفسيرا مقنعا. أسرعت إلى مدير المركز أسأله عمن يعتمد عنوان المركز عنوانا شخصيا له. لم يصمد أمام إلحاحي وأخبرني عن رقية فهو أحد متابعيها وداعميها السريين. رقية تداوم صباحا في المركز. ركضت أبحث عنها بين الأقسام والورشات حتى عثرت عليها. طوقتها بأحضاني وأنا أعتذر بشدة منها. وهي من دهشتها لم تحر جوابا. دفعتني بلطف بعيدا عنها ثم شغلت محرك كرسيها وغادرت المكان. يومها تأكدت أن لا مهرب من الماضي إلا بالهرب أكثر. يومها عدت وقد قرّ قراري بالسفر خلف نور، إمعانا في الحب والنسيان.

ركبت سيارة تاكسي. استدرت ناحية الزجاج أتأمل الطريق والبنايات والفراغات والنباتات، كأنني أرى غمسيس لأول مرة. مدينة صغيرة ضاربة في التاريخ، عنيدة لا تستسلم للبحر ولا للصحراء. من يدخلها سيولع بها، ومن يغادرها سيحملها بداخله. غمسيس هذه المدينة الشاهدة بشواهدها وعناوينها الكثيرة وتقلبات أهلها. كم من حالة فراغ انتابتني، وكم مرة كان مزاجي السيء سيد الموقف، وكم من مرة ورطني العناد! غمسيس تشبهني جدا، بتقلباتها الكثيرة، وبشطحاتها السريالية. عنّ لي أن أطلب من سائق التاكسي أن يوصلني إلى الميناء. منذ زمن لم أذهب إلى هناك. لن أذهب لاستعادة الذكريات، ولا تهمني ذكرى أبجد أبدا. سأزور الميناء وأرقب الحياة من هناك كما لم أفعل من قبل.

المساء يقترب والحركة قد خفت. نزلت من السيارة وتقدمت صوب الميناء حتى وصلت الحافة الإسمنتية القريبة من مرسى السفن. جلست على كومة من شِباك الصيد القديمة، ونظرت إلى الأفق الأعلى، وهناك علقت نظراتي. خطوات ثقيلة قطعت صمتي. وقف إلى جانبي رجل متقدم في السن كما بدا ذلك من هيئته. حياني بتحفظ والدهشة تغزو ملامحه وهو يتأمل زينتي ولباسي الأنيق، قال لي: أعرف أننا لم نلتق من قبل، ولكنني أعرفك جيدا، كما أعرف السيد أبجد. رأيتك تطئين أرض الميناء فأردت أن أقدم لك واجب التعزية.

- التعزية؟ في مَنْ؟

سألته والقلق واضح على صوتي وملامحي..

- شيء مؤسف ما حدث للسيد أبجد.

ألقى عبارته، واستدار مبتعدا بخطوات لا يختل توازنها، وتركني لأسئلة تتناسل وتجلدني كلما غابت عني الإجابة..

نهضت من مكاني وأردت اللحاق به لكي أفهم منه أكثر، لكنه كان قد اختفى عن ناظريّ، وغاب في غلالة المساء.

....

كهارب أركض ناحية المحطة لألحق بالحافلة. أتأبط حقيبتي وأنام كيفما اتفق في المقعد. أطمئن على علبة الحلويات بجانبي كل مرة وأعاود النوم. الرحلة لم تكن طويلة كعادتها، تقريبا كنت الراكب الوحيد في الحافلة. والمسافات طويت طيا بمعجزة. لعل شوقي إلى نور فعل هذه الأفاعيل. وصلت المحطة في غمسيس، ومن الكشك المنتصب قرب البوابة اقتنيت كوكا كولا بالحجم العائلي. عرجت على الشقة على جناح السرعة. ألقيت بحقيبتي، وحملت المشروب وعلبة "الغريبة" التي تحبها نور، وهرعت إلى الشارع أبحث عن سيارة أجرة. برودة الأرضية غزت مفاصلي ونبهت عقلي. أفقت من نومي لأجدني ملقى أرضا. لقد سقطت من الفراش. أنا أحلم إذن. أين أنتِ أيتها النور؟ كنت دائما ملاكي الحارس الذي يحميني وينقذني في أحلك المواقف، لماذا لا تفعلين ذلك الآن ولو لمرة أخيرة؟ أخرجيني من هذه الزنزانة الانفرادية، وأعدك أنني لن أبتعد عنك ولو خطوة واحدة. أعرف أنني كنت نزقا، غريب المزاج، ومطاردات

محاسن جعلتني لا أركن في مكان واحد. هجرت أمي، وهجرتك، رغم عشقي لك. هذه الرحلة الشاقة كانت كفيلة بتغييري وتعليمي دروسا لا تنسى. ولقد تعلمت الدرس المهم: لن أفرط فيك مطلقا. تراك قرأت رسالتي الأخيرة، ومن شدة قهرك لم تتحركي قيد أنملة. أتراك شامتة بي؟ لكنك لست سيئة مطلقا. متى تخرجيني من هذه الزنزانة الرطبة التي تكتم أنفاسي. كنت قد فرطت في الحب سابقا، الآن أعدك أنني لن أترك الحياة معك تتسلل من بين أصابعي. فقط ألقي بنورك على هذا المكان حتى يطهرني وأخرج. لم يكن لي أمل كبير، أكاد أجزم أن نور في باريس، وهناك نسيتني تماما، حتى لو أرسلت لها مائة رسالة فهي لن تفعل شيئا. لقد تعبت ومللت. لا شيء أسهل من صناعة أنشوطة. هذا الغطاء الصوفي مناسب جدا. سأقلب الفراش وأثبته إلى الحائط كسلم، وسأصعد إلى الكوة في الأعلى، وأربطها هناك. ليس أسهل من أن يتدلى المرء فوق العالم بغير رغبة. تماما هذا ما سأفعله الآن.

الأخير

اللقاء

.. لقد انتهت حياتي منذ أن رأيته، أو لأني ما كنت أريد أن أراه، أو لأني تأخرت أن أراه لكي تنتهي حياتي، أو لأني تركته يفعلها معي، أو لأني ما كان علي أن أتركه يفعلها معي، أو لأني عرفت أنه يشد الرحال ويحزم أمتعته ويتسلل فجرا نحو محطة سيارات الأجرة ويحجز مقعدا وينام حتى يصل العاصمة منهكا، ولم أوقفه عن عزمه، أو لأني مثله ما أحببت غمسيس، أو لأني أحببت غمسيس أكثر من ما يجب، أو لأني تورطت بأمي وكان صعبا علي فراقها واللحاق به في العاصمة، أو لأنه كان علي أن أترك كل شيء وأمشي وراءه، أو آخذ أمي معي، أو لأني كنت مترددة فلم أمشي وراءه، أو لأني ما كنت مؤمنة بالحب أبدا، أو لأني كنت قد تعبت، والتعب ابن كلب يجعلك لا تفكر ولا تعرف الطريق، أو لأني كنت خائفة من موت الحب تحت ضربات الحياة والفقر والعمل، أو لأنه لم يلح علي وكنت أريده أن يلح علي أكثر، أو لأنه عندما مدَّ يده ذاك المساء تحت قميصي الشفاف صددته ودفعت يده بعيدا عن صدري المنتفض، أو لأنه عندما مدها ثانية بين فخذي ضربته، أو لأنه لم يلح، ولم يعاود، ولم يقتحم، أو لأنه لم يحك لي عن الرفيق القديم الذي يصر عليه في أن يسدي له خدمة لست أدري ما

هي، أو لأني ما اهتممت بالورقة المطوية بعناية وهو يدفعها إليّ ونحن في المطبخ لكي أفهم الموقف أكثر، أو لأن أنيس الحلاق قد اختفى بشكل مريب وقيل أنه قد اغتيل، أو لأن الشرطة كانت تستجوب الناس في كل مكان من غمسيس عن العنف في الميناء، والتهريب، وعن العصابات المنتشرة والجرائم المتسلسلة في اطراف المدينة، أو لأني قد اشتعلت غيرة بسبب أنف رقية وجمال خصرها وريعان عمرها، أو لأنه قد هام برقية حبا، وأخفى ذلك عني وأنا اكتشفته دون عناء، أو لأن محاسن قد ظهرت بحقدها عليه وخربت كل شيء من حولنا، أو لأن "وطفة" ما عدت أراها، وأنا التي كنت أراها مثل أمي، أو لأن رقية سردت علي حكاية حولاء لا رأس لها ولا ذيل عن اليهودي الطيب أيال وعائلته المضيافة، أو ربما أيضا لأني عندما ذهبت مرة إلى الميناء لابتياع شيء من الحبار لأمي علمت هناك أنه يدفع أموالا لكي يسافر خلسة عبر البحر نحو الموت والمجهول، أو لأنه لم يخبرني برغبته في الحرقة نحو إيطاليا، أو لأني كنت أريده أن يحرق شريطة أن يأخذني معه، أو لأنه كان صعبا عليّ أن اعترف أمامه أن حياتي بدونه صحراء بلا معنى، لذا خذني معك أو ابق معي أرجوك، لا ترحل، لا ترحل، أو لأني لم أقل له لا ترحل، أو لأنه كان علي أن لا أقول له لا ترحل، أو لأني عندما علمت بنبأ رغبة البعض باغتياله خفت ولم أجرؤ على التفكير حتى، ولم أنذره، بل تركت المركب يغرق، أو لأن قلبي قد هرم، وجسمي قد خبا، وسحري انتهى مفعوله، والرجال ما عادوا يشهقون لمروري أمامهم وهم يلتهمون مؤخرتي، أو لأن دورتي الشهرية ما عادت منتظمة بل ويصاحبها

ألم غير معهود لا يطاق، أو لأني عندما ماتت أمي أخيرا، أصبت بالشرود والشلل، وصرت احتسي أربعة أكواب من القهوة كل يوم، وأدخن السجائر الرخيصة، وأحيانا، حين ميسرة، قارورة نبيذ محلي، أو لأني عندما علمت أنه قد غاب، قررت الغياب معه، أو لأني حفظت درس نيتشه عندما قال إن الحقيقة يقولها أولئك الذين يرغبون بالرحيل، أو لأنه كان مبكرا عليَّ قول الحقيقة، أو لأني عندما بددت كل مدخراتي عبر السنين والعمل وثمن البيت ومصوغ أمي على رحلتي المجنونة للبحث عنه في إيطاليا وفرنسا ولندن، عدت بخفي حنين، أو عندما قرأت عشرات المرات دفاتر تلك الحمقاء رقية وهي تسرد فيها تفاصيل التفاصيل عن علاقتهما الحميمة العنيفة الشهوانية منذ الليلة الأولى في فراشه عندما آواها وهي هاربة من الشرطة بعد مقتل عشيقها الحلاق الذي كان أجهضها مرتين رغم صغر سنها، وحتى آخر ليلة لهما معا حيث ضاجعها بين الأحراش تحت ضوء القمر قريبا من الساحل في انتظار المُهرِّب الذي سيأخذه في قارب للموت صوب لامبيدوزا، أو لأني أنا من كان يجب أن تكون تحته بين الأحراش، أو ربما كان من الأجدى أن أكون معه على متن ذلك القارب المعدني الصدئ أناوله الماء بين فينة وأخرى، وأحلم معه بمعسكر الوصول في الجزيرة الإيطالية الحقيرة، أو لأني عندما تعرفت إلى أناس يعرفونه في لندن وباريس عرفت أني ما كنت عرفته أبدا، فها هم يتحدثون إلي عن رجل آخر كنت شممت رائحته في الفراش كثيرا لكني ما كنت عرفت تلاوين روحه ولا تمزقات عقله ولا عذابات حياته المليئة بالغدر

والتنكيل والخيانة، أو لأني عندما عدت به أخيرا في صندوق خشبي مسمر بإحكام، لم أخبر أمه لكي تحضر الدفن، فيكفي "وطفة" ما نالته منه في حياته، أو لأني عندما رأيت رقية وهي متكومة على كرسي الإعاقة لم أحزن لأجلها لكني تعاطفت معها، ففي نهاية المطاف كان يجمعنا رجل واحد، أو لأني وأنا أخط هذه الكلمات، وحيدة مهجورة حزينة، أعرف تماما أن حياتي قد انتهت بعده، مرة واحدة وإلى الأبد.

وقفتْ نور على حافة البحر محدقة في المياه الممتدة التي لا نهاية لها أمامها. الميناء القريب يطلق دوما رائحة الأسماك المتعفنة، لذا لم تكن تذهب كثيرا إلى منطقة الساحل، حتى عندما كان أبجد يستدعيها لعشاء فاحش هناك. لقد مرت شهور منذ عودتها من فرنسا، شهور منذ أن أعادت أبجد إلى وطنه. لقد وارته الثرى بكل الحب والاحترام الذي يستحقه، لكن ألم خسارته لا يزال باقياً في داخلها.

هكذا بدت مقاهي ومطاعم القرية المنفوخة التي تعيش فيها على بحر ملطخ بدماء أسماك الصيادين الفقراء، وببقايا أكياس الشباب الحارقين إلى أقرب جزيرة إيطالية لتحرير الحلم وتحلية اللقمة، وقد ضاعت أرواحهم في هذه اللعبة المتكررة دون فوز، وغالبا ما يطلقون عليها اسم الهجرة غير الشرعية، بينما اسمها الحقيقي هو امتطاء قوارب الموت. مدينتها الساحلية الصغيرة هذه لا تكلّ ولا تملّ من دفن جثث الأبناء ودفع المزيد منهم نحو البحر الغدار الخائن عدو الصديق، وصديق الفقدان .

هي لن تنسى أبدا كيف أنها رأته ذات ظهيرة في الشارع وهو مشمئز جدا من الحياة، بسبب أنه كان أمضى مدة طويلة في العاصمة، دون العودة في إجازة إلى الجنوب، "مما جعلني أكره نفسي وألعن الحياة، وها أنا ذا قد أعلنت أني سئمت من كل ذلك". ولكن يا أبجد، من الذي يجرؤ على السأم وهو في تونس العاصمة، تلك المدينة الكولونيالية الكوزموبوليتانية المتوسطية المرتمية على مقربة من البحر كفتاة تتعرى تحت الشمس وتغطي مفاتنها بشيء من الرمال؟ ولكن، الحقيقة هي أنه كان قد أقسم على عدم الرجوع إليها مهما كانت المغريات على طول مقاهي وبارات شارع الحبيب بورقيبة، بعصافيره التي تقوم برقصتها كل مساء وهي تؤوب إلى أعشاشها المنتشرة على الأشجار المزروعة باعتناء على ضفتي الشارع الشهير، تناغي ذكريات قد غربت وذبلت وزالت، وتستشرف ما سيحدث بعد سنوات في هذا الشارع بالذات من أهوال وزلزال .

لقد جعلني كئيبة. وللحظة فكرت، فجاءني الحل في صورة واحدة تتكرر دوما في خيالي لكني أخدع نفسي كل مرة بادعاء أنه حل مفاجئ ومباغت وجديد. فقلت له بوضوح "اذهب لترمي حقيبتك، واغتسل سريعا وتعال التحق بي للمنزل ريثما أجهز شيئا نأكله". قال فرحا مثل طفل: "صدقيني قبل أن ألتقيك الآن كنت أفكر في أمر واحد لا غير، حلّ واحد يفرض نفسه عليّ في كل مرة أضيع فيها. حل واحد وحيد اسمه ضوء العيون، بَضْعة الروح، سرّ الوجود: نور."

تذكرتْ نور اليوم الذي اكتشفت فيه حبّ أبجد لرقية. لقد كانت صدمة حقيقية لها، لكنها كانت تعلم في أعماقها أنه أحب الفتاة الصغيرة بطريقته الخاصة. لم تكن نور تشعر بالغيرة من قبل، وعرفت أن حبّ أبجد لها كان مختلفا وأقوى.

وبينما كانت تقف هناك، تائهة في التفكير، شعرت بيد على كتفها. كانت محاسن زوجة أبجد السابقة .لم تكن نور مولعة بها من قبل، لكنها كانت تعلم أن محاسن أحبت أبجد بطريقتها الخاصة أيضا.

قالت محاسن بهدوء: "أنا آسفة". "أعلم أننا لم نتفق دائما، لكني أحببته أيضا، رغم كل ما حصل بيننا. رغم المعارك والحروب والدماء والضحايا".

استدارت نور نحوها والدموع تنهمر على وجهها .قالت: "أنا أعلم". وأكملت: "لقد كان محبوبا من قبل الكثير من الناس".

وقفتا هنالك في صمتٍ لبضع لحظات، كلتاهما تائهتان في أفكارهما. عرفت نور أن حبّ أبجد لرقية كان معقدا، لكنها كانت تعلم أيضا أنه أحبها هي أكثر من أيّ شيء آخر في العالم. هل تحكي لها عن رقية؟ هل هذا ضروري الآن؟ هل تنقل لها بأمانة كيف كان أبجد يرتعب من مجرد ذكرها؟ هل تخبرها بما كان أبجد يقوله عنها من بقايا حياته الزوجية الفاشلة معها؟ لكن لا! لا داعي لذلك. لم يعد للأمر من فائدة الآن بعد الرحيل المفجع. الزمن سيغسل مثل المطر شوارع حياتنا المتشعبة.

قالت محاسن فجأة: "لقد أحبَّكِ. لقد أحبَّكِ أكثر من أيّ شيء آخر في هذا العالم، وأكثر من أيّ أحد آخر، وهذا كان يمزق قلبي بعشرة سكاكين دفعة واحدة".

أومأت نور برأسها، وما زالت الدموع تنهمر على وجهها. قالت: "أنا أعلم". "وأنا أيضا أحببته."

عندما وقفتا هناك، تشاهدان الأمواج وهي تتساقط على الشاطئ، عرفت نور أن حب أبجد سيكون دائما معها. لن تنساه أبدا، وستعتز دائما بالوقت الذي أمضياه معا، رغم كل الصعاب والمِحَن التي واجهاها معا.

في النهاية، كان حبهما لبعضهما معقدا، متشابكا، غامضا، عنيفا، صاخبا، لكنه كان أيضا نقيا وحقيقيا. وكان هذا بالنسبة إليها الآن هو كل ما يهمّ.

الفهرست

المؤلفان في سطور

عواطف محجوب

شاعرة وقاصة وناقدة من تونس.

صدر لها:

لاعب الظل، قصص قصيرة، الطبعة الأولى، مومنت للكتب والنشر، لندن 2021

لاعب الظل، قصص قصيرة، الطبعة الثانية، منشورات كناية، ستوكهولم 2024

تلوكني العتمات، قصائد نثر، منشورات كناية، ستوكهولم 2022

مزمنة، "سكيتشات قصصية"، منشورات كناية 2023

قراءة ثانية، مقالات نقدية في الأدب العربي المعاصر، منشورات كناية، السلسلة النقدية، ستوكهولم 2024

وسيصدر لها قريبا:

رباعيات، قصائد نثر، منشورات كناية 2025

حكمت الحاج

شاعر وكاتب مسرحي وناقد من العراق.

صدر له أكثر من اثنين وعشرين كتابا، منها:

بغدادات، قصائد نثر، 1992 ط أولى ببغداد، ط ثالثة 2014 عن مومنت للكتب والنشر

خمسة أولاد كلب، قصص قصيرة وحكايات، طبعة خاصة عن منشورات نون، بغداد 1994

قنبر علي، رواية قصيرة وحكايات، مطبعة البياتي (طبعة على نفقة المؤلف) بغداد 1995

تمر العاصفة وتبقى الصحراء، قصائد نثر، منشورات دار ومجلة "الحركة الشعرية" بيروت 2000

دليل المتحيرين، قصائد نثر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة إبداع عربي، القاهرة 2014

جِنّ أو الموعد القاتل، ثلاث مسرحيات من دراما اللامعقول، لندن 2018

نقد التحدي والاستجابة: عرض مفاهيمي لجمالية التلقي والتواصل الأدبي كما عند "هانز روبرت ياوس"، مع تطبيق نقدي على قصيدة النثر في العراق، منشورات مومنت 2019

مبادرات: نقديات معاصرة، دراسات وأبحاث نقدية، مومنت للكتب والنشر، لندن 2021

مع المجانين في مزرعة النثر، مختارات شعرية وتنظيرات، بالتعاون مع كروب "مجانين قصيدة النثر"، القاهرة ستوكهولم 2022

سفينة الحيارى، تسع قصائد نثر، دار "لازورد" للنشر والتوزيع، بغداد لاهاي 2022. وطبعة ثانية صدرت عن منشورات كناية 2023

الكيخوطي، مونودراما شعرية من مسرح اللامعقول، منشورات كتاب كناية، ستوكهولم 2023

وله تحت الطبع: في الشعر السويدي النسوي المعاصر، دراسة ومختارات، سلسلة كتاب كناية.